الطبعة 2

عبدالله المغلوث

٦:٤٧م



عبدالله المغلوث

«الساعة 7:46 مساءً»

«الساعة 7:46 مساءً»

عبدالله المغلوث

الكتاب: **الساعة 7،46 مساءً**

تأليف: **عبدالله المغلوث**

التصنيف: **قصص**

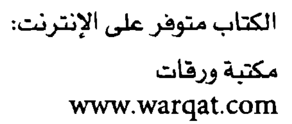
الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: فبراير (شباط) 2013

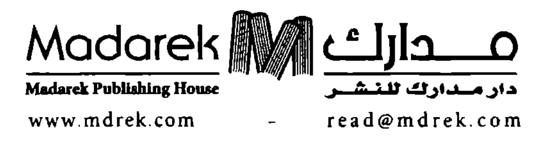
الطبعة الثانية: مارس (آذار) 2013

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9948-425-90-8

طبعت في مطابع الخريجي Al-Kheraiji Printing Press 00966 1 2446688







www.mdrek.com - read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة
Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates
P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977



المحتويات

المقدمة

في الخامس من يناير 2013، هاتفتني زوجتي، وأنا في المكتبة، وهي تنتحب: «أحمد يحترق..تعال..تعال بسرعة». المسافة بين مكتبة الجامعة وشقتي في مانشستر سيرًا على الأقدام لا تتجاوز 6 دقائق. لكن شعرت أنها 6 أيام. أصبحتُ ثقيلاً جدًا. لا أستطيع حمل رأسي، الذي يزدحم بأسئلة كالمطارق في حجمها ودويّها: ماذا حدث لأحمد؟ كيف احترق؟ هل سيعيش؟ هل مات؟

متُّ قبل أن أصل إلى العمارة السكنية. المصعد، الذي يقل سكان العمارة كان يأتي سريعًا. كنت أحسُّ دائمًا أنه يعلم بموعد قدومنا. فيكون في الانتظار بالطابق الأرضي؛ ليحملنا على ظهره إلى الأعلى. هذه المرة، كان نائمًا في الأعلى. أصرخ عليه بأصابعي ولا يستيقظ. أضغط على زر المصعد مائة مرة يائسًا ومعتقدًا أن كثرة الضغط ستجلبه بسرعة، لكن دون جدوى. فكرت أن أتسلق السلالم إلى الطابق العاشر حيث أقطن مع أسرتي. لكن خشيت أن أتأخر أكثر. ابني يشتعل، الوقت ينفد... ماذ أفعل؟ تحاشيت أن أهاتف زوجتي خلال لحظات انتظاري المميت. فلست على استعداد لتلقي نبأ أكثر

سوءًا. وصل المصعد أخيرًا وأنا أحترق بهواجسي. استقليته وجلست أتخيل ماذا سينتظرني وأردد كل السور والأحاديث، التي أحفظها. وصلت إلى الشقة. كان الباب مشرعًا. يسيل من داخل الشقة نحيب لا ينقطع. دخلت فوجدت زوجتي في دورة المياه تبكي وهي تحمم أحمد، الذي يتساقط جلد رقبته وظهره وبطنه أمام أعيننا. كانت تسكب عليه دموعها والماء البارد حسب تعليمات موظفة الطوارئ، التي أجابت على اتصالها. لم أنبس ببنت شفة حتى وصل رجُلا إسعاف مع أدواتهما إلى الشقة. أخذا أحمد ووضعا على أماكن الحروق مرطبًا ثم ضمادات فحمله أحدهما، وطلب منا أن نلحقهما إلى سيارة الإسعاف. تزاحمنا في السيارة برفقة ألمنا الكبير. وصلنا إلى المستشفى بعد أن تحاورتُ وزوجتي في الطريق بالأدعية والسور والتمتمات...

فور وصولنا كشف عليه مباشرة أخصائي الحروق الذي كان في الانتظار. أخبرنا أن بعض الحروق عميقة والأخرى سطحية. الخطورة تكمن في مساحة الحريق، التي تغطي نحو 15% من جسده الغض. فهو لم يكمل 10 شهور بعد ويتطلب علاجًا مكثفًا وتنويمًا قد يستغرق أسبوعًا أو أكثر ناهيك عن المتابعة الطبية المتواصلة بعد خروجه، إذا لم يتعرض إلى التهاب أو مضاعفات ستكشفها الفحوصات المخبرية. طلب منا الطبيب أن نغادر غرفة الطوارئ وننتقل إلى جناح الحروق حتى يخضع أحمد إلى المزيد من الفحوصات للتأكد من طبيعة الحروق أكثر ومدى خطورتها وتأثيرها.

ظللنا ساعات طويلة نتضرع ونترقب ونفكر.

كانت تلك اللحظات من أصعب المواقف التي مررت بها مؤخرًا. جعلتني أعيد التفكير في أشياء كثيرة حولي. فقبل إصابة ابني كانت لديّ خطط عديدة أقوم بها ذلك الأسبوع. لكن بعضها تأجل أو ألغي إثر الحادثة. أيضًا، كنتُ أستقل المصعد كل مساء وأنا وأحبتي نرفل في ثياب الصحة غير مدركين للنعم التي نتمتع بها. غير شاكرين فضله سبحانه وتعالى وكرمه معنا. نستذكر فقط التفاصيل السلبية الصغيرة التي تعكر صفو حياتنا وتمنحنا حزنًا لا يليق.

لا ندرك ضآلة مشاكلنا الحالية إلا بعد ارتطامنا بمشاكل أكبر منها. وحينها سنندم كثيرًا؛ لأننا حزنا كثيرًا على أشياء صغيرة. صغيرة للغاية.

إن هذا الكتاب مشروع نويت أن أقدمه في وقت لاحق لاسيما أنني أعكف على مشروع تأليفي آخر يتعلق بتخصصي الدّراسي، يأخذ جل اهتمامي حاليًا، لكن حادثة أحمد - رغم تعافيه ولله الحمد والمنة - أعادت الكثير من حساباتي، وجعلتني أدفع بهذا الكتاب إلى المطبعة. فحياتنا القصيرة لا تحتمل المزيد من التسويف والتأجيل. لا نعلم متى سيقبض الله أرواحنا، وهل ستكون ظروفنا المقبلة أفضل. تعلمت أن القادم سيكون أكثر تعقيدًا وأقل مرونة. ليس بالضرورة لأننا مقبلون على أيام عصيبة، بل لأننا نكبر وتكبر مسؤولياتنا معنا. وإثر تفاقم المسؤوليات قد نضحي بالكثير مما نحب ونهوى فتتغير الأولويات

والخطط وقد تحيا مشاريع وتموت أخرى.

الكتاب يشتمل على عدة مقالات دونتها ما بين عامي 2009-2012، السمة المشتركة بينها أنها تتناول أفكارًا وتجارب أرى أنها إيجابية عايشتها أو وقفت عليها شخصيًا أو قرأت عنها. تجارب ملهمة لأسماء مغمورة وأخرى مشهورة. من مجتمعاتنا العربية، ومن الشرق الأقصى، وأمريكا.

حرصت أن يكون اسم الكتاب: «الساعة 7:46 مساءً»، وهو الموعد الذي تلقيت فيه اتصال زوجتي الأول لتخبرني فيه عن الحادثة التي تعرض لها أحمد، حتى أتذكر هذا الموقف كلما أشارت عقارب الساعة إلى «7:46 مساءً»؛ لأحمد الله على ما أعطاني وما أخذ مني. وأستعيد تلك اللحظات العصيبة بإيمان، وابتسامة.

«الساعة 7:46 مساءً» مشروع للتسلح بأفكار إيجابية تمنح أيامكم أملاً وسعادة، ودعوة للشروع في بلورة الأفكار، التي تسكن رؤوسنا، بعيدًا عن التسويف والتأجيل، الذي طالما أودى بحياة الكثير من المشاريع، التي بوسعها أن تغير مجرى حياتنا.

عبدالله المغلوث

مانشستر

20 يناير 2013

حرائق لا ترى

اشترط أستاذ مادة علم الاجتماع في جامعة ماليزية على طلابه إسعاد إنسان واحد طوال الأربعة أشهر، مدة الفصل الدراسي، للحصول على الدرجة الكاملة في مادته، وفرض الأستاذ الماليزي على طلبته الثلاثين أن يكون هذا الإنسان خارج محيط أسرته وأن يقدم عرضًا مرئيًا عن ما قام به في نهاية الفصل أمام زملائه. لم يكتف الأستاذ بهذه المبادرة بل اتفق مع شركة ماليزية خاصة لرعايتها عبر تكريم أفضل 10 مبادرات بما يعادل ألف دولار أميركي.

في نهاية الفصل الدراسي نجح الطلاب الثلاثون بالحصول على الدرجة الكاملة، لكن اختار زملاؤهم بالتصويت أفضل 10 مبادرات بعد أن قدم الجميع عروضهم على مسرح الجامعة، وحضرها آباء وأمهات الطلبة الموجودين في كوالالمبور.

نشرت هذه المبادرات الإنسانية أجواء مفعمة بالمفاجآت والسعادة في ماليزيا قبل عامين، فالجميع كان يحاول أن يقدم عملاً إنسانيًا مختلفًا يرسم فيه السعادة على محيّا غيره. لقد قام طالب ماليزي، وهو أحد الفائزين العشرة، بوضع هدية صغيرة يوميًا أمام

باب شقة زميله في سكن الجامعة وهو هندي مسلم، ابتعثه والده لدراسة الطب في ماليزيا، اختار الطالب هذا الطالبَ تحديدًا؛ لأنه شعر بأنه لا يمتلك أصدقاء أو ابتسامة طوال مجاورته له لنحو عام، كان الطالب الهندي لا يتحدث مع أحد ولا أحد يتحدث معه، يبدو حزينًا وبائسًا مما جعل زميله الطالب الماليزي يرى أنه الشخص المناسب للعمل على إسعاده، أول هدية كانت رسالة صغيرة وضعها تحت باب شقته كتبها على جهاز الكمبيوتر في الجامعة دون توقيع: «كنت أتطلع صغيرًا إلى أن أصبح طبيبًا مثلك، لكنني ضعيف في مواد العلوم، إن الله رزقك ذكاء ستسهم عبره بإسعاد البشرية». في اليوم التالي اشترى الطالب الماليزي قبعة تقليدية ماليزية ووضعها خلف الباب ومعها رسالة: «أتمنى أن تنال قبولك هذه القبعة». في المساء شاهد الطالب الماليزي زميله الهندي يعتمر القبعة ويرتدي ابتسامة لم يتصفحها في وجهه من قبل، ليس ذلك فحسب بل شاهد في حسابه في الفيس بوك صورة ضوئية للرسالة الأولى، التي كتبها له، وأخرى للقبعة، التي وضعها أمام باب منزله، وأجمل ما رأى هو تعليق والد طالب الطب الهندي في الفيس بوك على صورة رسالته، والذي قال فيه: «حتى زملاؤك في الجامعة يرونك طبيبًا حاذقًا، لا تخذلهم واستمر». دفع هذا التعليق الطالب الماليزي على الاستمرار في الكتابة وتقديم الهدايا العينية الصغيرة إلى زميله يوميًا دون أن يكشف عن هويته، كانت ابتسامة الطالب الهندي تكبر كل يوم، وصفحته

في الفيس بوك وتويتر تزدحم بالأصدقاء والأسئلة: «ماذا ستحصل اليوم؟»، «لا تتأخر... نريد أن نعرف ما هي الهدية الجديدة؟». تغيرت حياة الطالب الهندي تمامًا، تحول من انطوائي وحزين إلى مبتسم واجتماعي بفضل زميله الماليزي. بعد شهرين من الهدايا والرسائل أصبح الطالب الهندي حديث الجامعة، التي طلبت منه أن يروي تجربته مع هذه الهدايا في لقاء اجتماعي مع الطلبة، تحدث الطالب الهندي أمام زملائه عن هذه الهدية وكانت المفاجأة عندما أخبر الحضور بأن الرسالة الأولى، التي تلقاها جعلته يعدل عن قراره في الانصراف عن دراسة الطب ويتجاوز الصعوبات والتحديات الأكاديمية والثقافية التي كان يتعرض لها.

لعب الطالب الماليزي، محمد شريف، دورًا محوريًا في حياة هذا الطالب بفضل عمل صغير قام به. سيصبح الطالب الهندي طبيبًا يومًا ما وسينقذ حياة العشرات والفضل بعد الله لمن ربت على كتفه برسالة حانية.

اجتاز الطالب الماليزي مادة علم الاجتماع، ولكن ما زال مرتبطًا بإسعاد شخص كل فصل دراسيّ، بعد أن لمس الأثر الذي تركه، اعتاد قبل أن يخلد إلى الفراش أن يكتب رسالة أو يغلف هدية. اتفق محمد مع شركة أجهزة إلكترونية لتحول مشروعه اليومي إلى عمل مؤسسي يسهم في استدامة المشروع واستقطاب متطوعين يرسمون السعادة في أرجاء ماليزيا.

إن هذه المبادرة التي ننتظر من مدارسنا وجامعاتنا أن تقوم باستثمارها؛ أثرها لا يغادر مع خروجنا من مبانيها بل يخرج معنا ويؤثر على محيطنا.

حولنا الكثير ممن يحتاجون إلى رسالة لطيفة أو لمسة حانية في هذا العالم المزدحم بالأحزان، لكن القليل منا من يقوم بذلك.

لو قامت مدارسنا وجامعاتنا باستثمار التجربة الماليزية البسيطة لأحرزنا سعادة ورسمنا ابتسامة في مجتمعاتنا المثخنة بالجراح. بوسعنا أن نغير في مجتمعاتنا وننهض بها بمبادرات صغيرة للغاية، لكننا نتجاهل حجم تأثيرنا وأثرنا. لنبدأ من اليوم مشروع إسعاد شخص كل أسبوع، الموضوع لا يحتاج إلى مجهود خارق، ربما تكون رسالة نبعثها إلى غريب أو قريب، أو هدية صغيرة نضعها على طاولة زميل أو موظف، تذكروا أن هناك الكثير من الحرائق التي تنشب في صدور من حولنا ، وتتطلب إلى إطفائيّ يخمدها بابتسامة أو مبادرة إيجابية صغيرة، أصغر مما نتخيل.

صائد النجاح

غادر جيمس أوردا هنري المدرسة مبكرًا، كان يرى في المدرسة سجنًا يرتدي زي منزل، لا يتذكر أنه أصغى إلى أي معلم أو استوعب أي درس، يتذكر فقط أنه كان يتعرض للعقاب ويستمع إلى النصائح المتكررة، هرب جيمس من المدرسة إلى الشارع، انتقل من مهنة إلى أخرى، أصبح نجارًا ثم سباكًا ثم ملاكمًا ثم عامل بناء، كلما أتقن مهنة أصابه الضجر وغادرها بلا عودة، كان سريع التعلم... قليل الصبر، لكن استقر في مهنة الصيد، أحسَّ أنه يشبه الأسماك، لا تلتقت يمينًا أو شمالاً، تسير بخيلاء معتدة بإمكاناتها غير مكترثة بما يدور حولها، أنفق جل يومه في رؤيتها وهي تسبح بحماسة، وتركض بسعادة، علاقته الفريدة مع الأسماك جعلته يهجر الصيد ويتحول إلى ربان سفن. يمخر عباب البحار والمحيطات، يتأمل الأسماك ما كبر منها وما صغر، يسافر من بحر إلى آخر ليشاهد سمكة جديدة بلون جديد.

كان جيمس يتقن الكثير لكن لا يجيد القراءة والكتابة، كانت أميته سرًا دفينًا لا يعلم عنه أحد، ظل الكتاب عدوًا لدودًا له، فالمرء

عدو ما يجهل، كلما شاهد كتابًا تضايق واكتأب، هناك من يخشى أن يزور مستشفى أو مقبرة، لكن جيمس كان يخشى المكتبة، كانت المكتبة تذكره بنقطة ضعفه، والمدرسة التي هجرها، والمعلمين الذين عاقبوه.

استمر الكتاب خصمًا لجيمس حتى سمع عن سيرة جورج داوسون، الذي تعلم القراءة في سن 98 عامًا، وألف كتابًا في عمر 101 عام بعنوان: «الحياة جيدة جدًا»، شعر جيمس أن بإمكانه أن يصبح مثل جورج داوسون، حاول أن يتعلم القراءة بجهد فردي لكنه فشل، استعان بالمعلم، مارك هوجان، المتخصص في تعليم الكبار، شرع جيمس في تعلم الحروف الأبجدية وانتقل إلى كتب الأطفال وهو في سن 91 عامًا، استمتع جدًا عندما بدأ في قراءة الجمل القصيرة والتدرب على الكتابة، كان يقضي مع معلمه 6 ساعات متواصلة يوميًا دون أن يقنط أو يتعب رغم مرضه وكبر سنه، ندم كثيرًا لأنه استسلم للمثبطات الداخلية، التي كانت تحول بينه وبينه الكتب مبكرًا. تطور مستواه على نحو سريع قبل أن تتوفى زوجته ويمر بفترة إحباط غير قصيرة، استأنف دروس القراءة والكتابة بعد إصرار معلمه وبعد أن رأى أنها ستنتشله من حالة الكآبة، التي كان يعيشها، وقتئذ.

قرر جيمس بعد نحو ست سنوات من التدريب أن يكتب سيرته تيمنًا بداوسون، انطلق في الكتابة دون أن يتوقف، قاوم آلام عينيه وارتعاشة يديه وأصدر كتابه الأول في سن 98 عامًا، لم يكن نجاح

جيمس مقصورًا في صدور كتابه في هذا العمر فحسب وإنما بتحقيقه مبيعات كبيرة تؤكد أنه لا يوجد عمر محدد للنجاح، ليس شرطًا أن تكون يافعًا وصغيرًا لتنال النجاح، الشرط أن تكون جادًا ومثابرًا للوصول إليه، وجيمس دفع مهر النجاح إثر السنوات السبع التي كافح فيها من أجل أن يتعلم، وقبلها العقود الطويلة التي صنعت تجربة ثرية كانت جديرة بالاهتمام والإقبال.

إنني أحزن كثيرًا عندما أشاهد في مجتمعاتنا شبابًا في عمر الزهور تخلوا عن أحلامهم لذرائع واهية، في حين نرى في الغرب نماذج تعمل وتجتهد وتكافح حتى آخر لحظة.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل».

تحمل تعاليم الإسلام في طياتها الكثير من القيم العظيمة التي نهملها ولا نكرسها في مناحي حياتنا. شاهدت قبل أيام قليلة زميلاً في الجامعة، التي أدرس فيها بمانشستر في بريطانيا، في السبعين من عمره يحمل على كتفه معدات التصوير وعدسات ضخمة ويصور بعض الطيور والمناظر الطبيعية بجوار الجامعة؛ لتطبيق أحد الدروس العملية في تخصص التصوير الضوئي الذي يدرسه، يعيد اللقطة تلو الأخرى ويجرب زوايا مختلفة بحماسة منقطعة النظير، لو كان هذا الرجل بيننا لما قُبل في الجامعة، ولوقفت الإجراءات البيروقراطية حائلاً بينه وبين متابعة حلمه، ناهيك عن العبارات المثبطة كـ: «يوم

شاب ودوه الكُتاب»، أو «الله يا حسن الخاتمة»، وغيرها من الجمل، التي تصيب الأمل في مقتله.

إننا بحاجة لنحيي روح الأمل في صغارنا وكبارنا لنحظى بالنجاح والسعادة، فها هو جيمس هنري ينجح في التسعين.

رومانسية في غرفة الولادة

يوم 20 فبراير 2012 كان يومًا تاريخيًا بامتياز في حياتي. ليس لكوني رزقت فيه بطفلي الثاني فحسب، بل لأنه كان نقطة تحول في علاقتي مع زوجتي.

لقد طلبت فيه مني الطبيبة البريطانية أن أرافق زوجتي إلى غرفة الولادة. كنت شاهدًا على المخاض العسير. يدي بيدها. كلما شعرت هي بألم ضغطت على يدي بقوة والتفتت نحوي. رغم اللحظات العصيبة التي كنا نمر بها إلا أنني كنت أتأملها وأبتسم. بدت جميلة أكثر. أحببنا بعضنا أكثر. مضى على زواجنا نحو 6 سنوات قبل وصول طفلي الثاني، إلا أن هذه اللحظة كانت الأجمل على الإطلاق. أجمل حتى من حفل زواجنا. عكست لي كم نحن بحاجة إلى بعضنا.

من تلجأ إليه في اللحظات الصعبة هو من تحبه فعلاً؛ لأنه الوحيد الذي تستطيع أن تبكي معه وإليه.. أن تبوح له ومعه. كانت سعادتي مضاعفة في ذلك اليوم بطفلي الجديد وبعلاقتي الجديدة بزوجتي.

كلما ابتعدت عن زوجتي تذكرت عناق أصابعنا في غرفة الولادة

وأبتسم. كان حوارًا دافئًا بين يدين. حوارًا عميقًا بين قلبين. بعد هذه التجربة أيقنت أهمية وجود الزوج في غرفة الولادة. آمنت بحاجة الزوجة إلى شريكها في هذه اللحظات. أدركت أثر هذه الدقائق المعدودة على مستقبل الزوجين.

رغم العقود التي يمضيها الأزواج العرب مع زوجاتهم، إلا أن بعضها يخلو من تجربة مهمة تتجسد في تواجدهم في غرف الولادة. هذه اللحظات القصيرة بوسعها أن تمنح العلاقة الزوجية بعدًا جديدًا وقيمة عظيمة. سيظل الزوجان يستذكرانها بامتنان. يرويانها لأطفالهما وأحفادهما حتى تثمر. يطفئان بها أي مشكلة تكاد تحرق حياتهم.

شخصيًا لاحظت السعادة ترتسم على محيا زوجتي رغم ألمها. شعرت بارتياحها من يدها. لقد أثبت الباحث، ريتشارد ديفيدسون، عالم الأعصاب في جامعة ويسكونسن، أن لمسة اليد يمكن أن تقلل من مشاعر الوحدة والخوف والألم.

فإذا كانت مجرد اللمسة تحدث هذا الفارق العظيم في المشاعر، فكيف بعناق اليدين. إنه سيحدث دوي حب، وبركان سعادة، وشلال أمان.

إن ما يسفر عنه عناق الأيادي أبلغ من آلاف الكلمات ومئات المكالمات. يمدك بطاقة محسوسة وملموسة. تنبعث من الجلد وتنتقل إلى جميع أطرافك. تشعل قلبك نبضًا وروحك نورًا وتخمد آلامك وتنهض بآمالك.

ثمة حاسة عظيمة نهملها في مجتمعاتنا تتمثل في لمس أحبتنا ومعانقة أيديهم. نتقشف بها مع أطفالنا ونبخل فيها على زوجاتنا وأحبتنا، فنحرمنا ونحرمهم من بهجة في متناولنا.

لا تدع الآخرين يحرمونك من هذا الإحساس العظيم. أمسك يد زوجتك في المنزل وفي الشارع. دعهم يسخرون ويتهكمون ويستهزئون. هم سيذهبون وسيغادرون، وأنت وهي من سيفوز ويحوز على السعادة، التي ستظل معكما طويلاً ولن يعوضها شيء.

أمسكوا وتمسكوا بأيدي أبنائكم بحنو ورقة ليشعروا بحرارة أيديكم، وتشعروا بنبض قلوبهم، ولينقلوا هذه العادة الجميلة إلى ذريتهم، وتصبح تقليدًا تتوارثه الأجيال.

دعونا نعمل على تشجيع الأزواج على مرافقة زوجاتهم في غرف الولادة؛ لتنعم الأمهات بالأمان والاطمئنان، وينعم الآباء بإحساس جميل وذكرى لن تتبخر وتشيخ.

ستعطر هذه الذكرى أيامكم. ستتذكرونها بحب كلما شاهدتم أطفالكم يبتسمون ويمشون ويقفزون ويكبرون. ستكبر معكم هذه الذكرى لتتكئوا عليها في أحلك الظروف وأصعبها.

الدائرة الملهمة

نال معلم الرياضيات في مدينة أوتاوا، أليكس أوفرويجك (37 عامًا) شعبية كبيرة في مدرسته إثر رسمه دائرة مثالية بيده على السبورة أمام طلابه. صار طلاب فصله يتحدثون مع زملائهم ورفاقهم خارج الفصل وداخله عن أصابعه، التي تتفوق على الفرجار في رأيهم. اقترح عليه أحد طلابه أن يصور هذه الدائرة ويتقاسمها مع الآخرين. وافق المعلم أليكس بعفوية على تصويره وهو يرسمها في الفصل. بعد أيام قليلة رفع المصور الفيديو على موقع تبادل الفيديو الشهير، يوتيوب. سجل الفيديو أكثر من 100 ألف مشاهدة خلال فترة وجيزة، واليوم وصل إلى أكثر من 6 ملايين مشاهدة. تحول المعلم البسيط إلى نجم شهير. شهير جدًّا. استضافته أشهر القنوات التلفزيونية في الولايات المتحدة وكندا للحديث عن هذه الدائرة الملفتة، التي كان يتدرب على رسمها في أوقات فراغه. كان يرسم أكثر من 200 دائرة يوميًا. ينجح في 10 ويخفق في البقية، حتى أصبح يخطئ في 10 وينجح في البقية. لو قام أليكس بهذا التدريب في مجتمعنا لأصبح عنوانًا للسخرية وهدفًا للتهكم.

دُعي أليكس إلى العديد من المسابقات والمهرجانات الدولية؛ للحديث عن هذه الدائرة التلقائية الساحرة. منحت هذه الدائرة المجد لأليكس ومن حوله. اشترى منزلاً لجدته وافتتح مدرسة خاصة للطلاب، الذين يواجهون صعوبات في الرياضيات، واشترى حافلة لمدرسة حكومية. كل ذلك وأكثر بفضل دائرة رسمها على سبورة فصله.

إن النجاح الذي حققته دائرة أليكس ينبغي أن يكون درسًا لنا كي نهتم بهواياتنا ونعتني بها جيدًا ولا نتخلى عنها مهما كان الثمن. ظللنا سنوات طويلة في مجتمعاتنا نقمع الهوايات البسيطة والتلقائية بذرائع شتى حتى أصبحنا مجتمعًا لا يتقن إلا القليل. قوبلت مواهبنا بالتهكم والازدراء حتى ماتت وانقرضت. لم نعد نصنع أي شيء سوى صناعة التذمر.

لو ربينا هواياتنا ومنحناها ما تستحق من عناية ورعاية لما أصبحنا مجتمعًا يقتات على النميمة.

إننا مجتمعات تفّهت كل شيء فلم يتبق لنا شيء ننشغل به ومعه.

لا يوجد شيء تافه على هذه البسيطة. ما يسعد الإنسان ويبهجه يظل عملاً جميلاً قد يسعد الآلاف والملايين ولنا في دائرة أليكس عبرة يا أولي الألباب.

كم شاب وشابة في وطننا تخلّوا عن أشياء بسيطة يحبونها ويهوونها بسبب كلمات التثبيط. ما لا يعجبنا قد يعجب غيرنا. لديّ الكثير من الأصدقاء ولديكم أيضًا ممن يمتلكون هوايات صغيرة

ولطيفة لكنهم ادخروها لأنفسهم أو اغتالوها لأنهم وجدوا مقاومة وتربصًا بها من محيطهم.

يتحمل الآباء والمعلمون مسؤولية كبيرة في هذه الخيانة العظيمة التي نقترفها تجاه هواياتنا. لقد كرس معظمهم الاهتمام بالمناهج متناسين أن الكثير من الإبداع هو خارجها.

كلما كثرت وتعددت هوايات مجتمع كلما زاد المجتمع تألقًا وإبداعًا. وفي المقابل كلما تقلصت وتشابهت هوايات مجتمع ما كلما ازداد رتابة ومللاً.

تتيح الخيارات العديدة للمجتمع أن يعيش الفرد في رحابه وسط عالم زاخر بالفرص.

الأشياء الصغيرة التي نقوم بها ونحن نمتلئ بالسعادة هي الأشياء التي ستدر علينا الخير والفرح الوفير. مشكلة مجتمعاتنا أنها أهملت هذه الأشياء الصغيرة مما حرمها من القبض على السعادة الكبيرة.

أغلب رواد الأعمال في الغرب والشرق نجحوا وحققوا هذا الفوز والانتشار الكبير بفضل شغفهم وولعهم بما يقومون به.

علينا أن ننميَ هواياتنا الصغيرة ونرويها حتى تكبر وتثمر. النجاح الذي سنحققه سيذهلنا قبل الآخرين. سيجعلنا أكثر ثقة وصلابة وإبداعًا.

أكثر ما يؤسفني أن أرى شخصًا تخلى عن شغفه. من يتخلى عما يحب سيجد ما لا يحب.

أشياء لا تذبل

دأبت أمي على معايدتي صغيرًا بدفتر يحمل كلمات جميلة تفوهت بها على مسامعها أو كتبتها. كنت أنتظر عيد الفطر كل عام لأستكشف ما أعجب أمي عبر الدفتر الذي تتصدره 5 نجوم دلالة على عمري حينما شرعت في مكافأتي به. كانت تكتب كل جملة وبجانبها تاريخها ومناسبتها.

أصبح هذا الدفتر حصادًا لعام مضى وإلهامًا لعام سيأتي.. صار شاهدًا على ذكرياتي. جعلتني هذه المكافأة السنوية أكثر حرصًا على اختيار عباراتي ومفرداتي أمام أمي؛ لكي أقبض نهاية العام على دفتر أسمن وأشهى من سابقه. انعكست هذه السياسة التي انتهجتها أمي في حرصي على التفوه أمامها وغيرها بعبارات منتقاة ومصطفاة. أفكر في كلماتي غير مرة قبل أن أُطلقها وأشيعها. دفعني أسلوبها إلى التساؤل: هل ما سأقوله أو ما سأكتبه سيكون جديرًا بالإقامة في دفتر أمي ذي الخمس نجوم أم لا؟ أزعم أن هذا الدفتر هو أحد أهم أسباب تعلقي بالكتابة وارتباطي بها.

كبرت وما زالت أمي تعايدني بهذا الدفتر حتى هذا اليوم.

أصبحت تملؤه بما يعجبها مما أكتبه وأنشره وأنثره هنا وهناك. تقتبس بسخاء، وتحيط حروفي بورود ترسمها ونجوم تصنعها.

فرحتي بهذا الدفتر لم تذو أو تتراجع، بل زادت وارتفعت. أبتهج به كطفل صغير. كلما فزت به أشعر أنني ما زلت أكتب ما يستحق اهتمامها وعنايتها، جلدها وكرمها. فالدفتر حتى ولو بدا بسيطًا وصغيرًا فهو يحتاج إلى مجهود كبير. فهي تحرص على أن تعده بنفسها. تكتبه بخطها الجميل.

وتضع بجوار كل جملة تعليقها الأخاذ الذي يسحرني ويأسرني. وبعد أن تفرغ منه تطبع منه نسخة إضافية تدخرها.

جاء دوري الأسبوع الماضي لأخوض هذه التجربة وأقرأ ردة فعل ابنتي، سفانة (5 سنوات) على دفترها الأول الذي قمت بإعداده بالتعاون مع زوجتي، مأخوذًا بفكرة أمي. فاقت ردة فعل ابنتي توقعاتي. طارت به كعصفور. أخذت تستعرضه أمام صديقاتها وأقاربها. تقول لهم: شاهدوا ماذا كتبت وماذا قلت، ماذا رسمت.. وماذا صنعت؟

ردة فعلها المحلقة جعلتني أفكر في تطوير هذه الفكرة العام المقبل، وأحاول أن تتجاوز محيط المنزل. رأيت أن أتقاسمها معكم، وأيضًا أن أقوم بها مع زميل أو صديق أو شخص أتابع ما يكتب وأبعثها له كعربون محبة في عيد الفطر المقبل، إن شاء الله.

لنجعل العيد فرصة جميلة لنجمع ما نحب لمن نحب. أن نروج للجمال والدهشة والبساطة.

إن هذا العالم المتخم بالتقنية والتكلف بحاجة إلى الكثير من المشاعر التلقائية والخاصة لاستمطار السعادة المفقودة.

لا يوجد شيء أكثر صدقًا وتعبيرًا عن المحبة كمن يجمع جمالك ويضعه بين دفتي دفتر.

ثمة بهجة عارمة مخبوءة في حصر الجمال الذي ينهمر من أصدقائنا وأحبتنا، لكننا للأسف مشغولون عنه بتعداد زلاتهم والتنقيب عن أخطائهم.

لو حاول كل منا استرداد واسترجاع اللحظات الجميلة والكلمات الصادقة المعبرة التي هطلت من شفاه وأصابع أحبتنا أجزم أنّ بوسعنا أن نصنع مجلدات كافية لرسم فرح يغمر هذا الكون.

إننا دائمًا ننفق أوقاتنا في البحث عن هدية تبسط السعادة في صدور أحبتنا، بدلاً من أن نصنعها. اصنع السعادة ولا تبحث عنها.

هناك أشياء تحتفظ بها، وأشياء تحتفل بها.

بيد أن أجملها على الإطلاق هو ما تحتفظ وتحتفل به معًا. أشياء لا تذبل ولا تصدأ تزداد تألقًا وتوهجًا مع مرور الأيام.

مضى العيد بعد أن أنفقنا الكثير الكثير. لكن القليل منا نال السعادة الحقيقية. من أراد أن يتذوقها فعليه أن يبدأ من اليوم في رصد الأشياء الجميلة وإشاعتها في اللحظات الجميلة.

عدوى النجاح

هاتفني قبل نحو 5 سنوات تقريبًا خالد الحارثي من نجران، متأثرًا بقصة كتبتها عن زميل تجاوز معاناته النفسية بعد أن غير تخصصه. قال لي خالد أنه يشعر أن معاناة صديقي عبدالرحمن التي كتبت عنها وقتئذ، تشبه معاناته إلى حد كبير وأنه سيقتفي أثره.

فخالد درس الحاسب الآلي في جامعة الملك سعود بالرياض، لكنه لم يشعر لحظة بأن هذا هو التخصص الذي يناسبه، رغم علاقته الجيدة مع الكمبيوتر وتفوقه في المرحلة الثانوية. عندما هاتفني خالد كان قد ترك الجامعة بالفعل، بعد أن أمضى فيها نحو عامين، وهرب إلى سوق العمل، ليدفن آلامه المتمثلة في عدم قدرته على مواصلة دراسته الجامعية في هذا التخصص، رغم الآمال العريضة التي كانت تعقدها عليه أسرته إثر تفوقه الدراسي المبكر. أخبرني خالد من خلال اتصاله أن من كتبت عنه سيعيده إلى مقاعد الدراسة. ودّعني واعتقدت أنه سيكون الاتصال الأول والأخير.

لكن خالد اتصل بي مجددًا بعد نحو 6 شهور من مكالمته الأولى. زف لي نبأ قبوله انتسابًا في جامعة نجران وانتهائه من الفصل

الدراسي الأول بمعدل 5 من 5. ووعدني خالد أنه سيتخرج بنفس المعدل رغم زواجه وارتباطاته العملية والأسرية.

صار خالد يتواصل معي نهاية كل فصل. يصافحني بصوته العاطر، ويكرمني بنبأ سعيد يتمثل في نجاحه بتفوق في كل مواد فصله الدراسي المنصرم.

اعتدت على هذا الاتصال الدوري، بيد أن خالدًا غير أسلوبه آخر فصل. لم يتصل بي ، بل أرسل إليّ رسالة إلكترونية، ينقل لي فيها نبأ تخرجه بمرتبة الشرف وبمعدل 4.8 من 5، مرفقًا معها صورة ضوئية لوثيقة التخرج.

ليس سرًّا أن خالدًا أحد أسباب إقبالي على الكتابة عن قصص النجاح. فالأثر الذي تركه في نفسي كان كبيرًا جدًا. فما أجمل أن تشعر أن ما تكتبه ينعكس إيجابًا على الآخرين. علاقتي مع خالد ألهمتني وجعلتني أكثر توقًا للكتابة عن قصص النجاح ما كبر منها وما صغر. جعلني أكثر إيمانًا أن النجاح ينتقل بالعدوى أحيانًا. فما تسمعه وتقرؤه عن قصص تشبهك قد يلهمك ويحفزك، وأعتقد أن مجتمعاتنا العربية فقيرة جدًّا في هذا النوع من القصص رغم أثرها وتأثيرها. ثقافتنا الشفهية وتقليلنا من شأن تجاربنا حرم الأجيال من نجاحات عظيمة.

ما زلت أتذكر قبل سنوات في الولايات المتحدة المحاضرة التي ألقاها رجل أعمال شاب على طلاب الجامعة. كانت تتناول تجربته

كطالب لم يستطع أن يكمل دراسته الجامعية، لكنه نجح في امتلاك أكثر من 3 فنادق في ولاية يوتاه الأميركية.

أهم ما قاله الشاب الأميركي هو أن نقطة التحول في حياته عندما قرأ سيرة (سيزار ريتز) صاحب سلسلة فنادق (الريتز) الشهيرة. فلقد طرد ريتز من عمله في فندق صغير في بلدة (بريج) السويسرية إثر عدم قناعة مدير الفندق بإمكاناته في العمل الفندقي، مما دفعه إلى العمل على إنشاء فندق بديع باسمه أصبح اليوم رمزًا للفخامة والرفاهية.

تأثرت كثيرًا بالمحاضرة التي ألقاها الشاب الأميركي، وما وصل إليه من نجاح في مجال الأعمال رغم فصله الدرامي من الجامعة. وأدركت أيضًا أهمية سرد التجارب وتوثيقها في حياتنا. فكلنا نحتاج إلى قصص نستلهم منها الإرادة، وحكايات نستخلص منها التحفيز للنجاح، فموقف واحد قد يمنحنا الأمل الذي نفتقره.

الفقر ليس في المال فحسب، وإنما في الأمل كذلك. علينا أن نتحرر من ثقافة ادخار قصصنا وتجاربنا ونبدأ في إشاعتها.. إفشائِها بسخاء. فكم من شاب وشابة ساعدتهم قصة على تجاوز صعوباتهم وتحدياتهم. رب قصة أشعلت حلمًا.

يعتبرها قلبه و تعتبره قدميها

قبل 13 عامًا تقريبًا كان ريك فان إنسانًا يائسًا بجدارة. لا يكمل في أي وظيفة أكثر من أشهر قليلة.. لا يملك أصدقاء. لا يحبه أحد ولا يحب أحدًا. كانت زوجته هي صديقته الوحيدة. ولولا طبيعة عملها التي تتطلب تواجدها خارج المنزل ساعات طويلة لربما خسرها مبكرًا.

كان ينفق ماله على السهر واللهو. يدخن 3 علب سجائر في اليوم، ويشرب الخمر، وأدمن المخدرات. انعكس سلوكه وإهماله على هيئته وصحته. كان يبدو أكبر من عمره بعشرات السنين. من كان يتصفح ريك، حينذاك، سيجزم أنه يمضي إلى الموت بخطى واثقة. فرئتاه ملوثتان وقلبه ينبض ببطء شديد.

رزق ريك حينذاك بطفلة صغيرة جميلة سماها، مادي. لقد قَلَبَتْ هذه الطفلة حياته رأسًا على عقب. جعلت لحياته هدفًا ومعنى. قيمة ومبنى. اكتشف الأطباء بعد مرور شهرين على ولادتها إصابتها بشلل دماغي. كانت الصدمة أكبر من أن يحتملها الأبوان. انهارا معًا. فلم يعد فان اليائس الوحيد في منزله. زوجته صارت في حال يرثى لها. دخلا في دوامة من الحزن والإحباط لأسابيع. لكن فجأة استيقظ

ريك من غيبوبة الألم. شعر بحاجة ابنته إليه. كبرت البنت وكبر أمل ريك وزوجته في أن يمنحاها سعادة تعوض حرمانها من الصحة التي يتمتع بها معظم الأطفال. لاحظ ريك أن ابنته كلما حملها على كتفه وخرج بها إلى الشارع ابتسمت وتوقفت عن البكاء. فأصبح يحملها على كتفه يوميًا حتى يكافئ نفسه بابتسامة يقطفها من وجه ابنته. أمسى ريك يسير بها طويلاً في الشارع إلى ساعات دون أن يشعر بتعب أو ضجر. كانت سعادتها التي تطفو على ملامحها البريئة هي بمثابة قارورات المياه التي يوزعها المتطوعون على المتسابقين المرهقين.

استوقفه جاره، وهو يحمل ابنته، أمام باب شقته، واقترح عليه المشاركة في سباق الماراثون وهو يحمل مادي ما دام أنه اعتاد على حملها لساعات على كتفه دون انزعاج.

نقل ريك اقتراح جاره إلى زوجته التي باركت الفكرة. تدرب ريك على حمل طفلته لكن بسرعات أكبر حتى يستطيع المنافسة في الماراثون. لم تمض 4 أشهر من تدرب ريك على الركض حاملاً ابنته حتى فتح باب التسجيل في ماراثون لندن.

شارك ريك في السباق. سجل رقمًا متواضعًا، لكن حضوره خطف الأنظار من كل الأبطال. رافقته طوال السباق عدسات المصورين والقنوات التلفزيونية. رصدت خطواته وابتسامة ابنته لساعات.. راقبت إصراره وبسالته بزهو. في اليوم التالي تصدر ريك عناوين السباق وكان ضيفًا على العديد من المحطات التلفزيونية.

تحول ريك من إنسان تعيس محبط مدمن يبغضه القريب والبعيد إلى إنسان عظيم تزهو به أسرته الصغيرة ووطنه.

هذا الاهتمام الكبير الذي حظي به ريك جعله يشارك في سباقات الثلاثي (ترياثلون)، وهو أشبه بالماراثون، يبدأ بالسباحة ثم ركوب الدراجات، وينتهي بالجري. ورافقت مادي والدها في هذا السباق الثلاثي تارة على كتفه وأخرى على ظهره.

كان مشهد ريك مؤثرًا وهو يحقق مركزًا متقدمًا ويفوز على مئات المتسابقين وهو يحمل ابنته (13 عامًا) وهم لا يحملون شيئًا.

يعتبر ريك ابنته قلبه، وهي تعتبره قدميها، فشكلا ثنائيًا ملهمًا لا ينساه التاريخ. استطاع ريك أن يحول مأساته إلى قصة نجاح يتناقلها الركبان. فعلينا أن ندرك أن بعض المصاعب التي تعترضنا لا يجب أن تمنعنا من النجاح بل تلهمنا إياه، وتدفعنا إليه. أطلقت الصحافة البريطانية عليه لقب «أبو القرن» إثر ما قدمه لابنته ومجتمعه، لكنه رفض اللقب مرجعًا الفضل في ما حققه لابتسامة ابنته التي يصفها بأنها «الأجمل في العالم».

ما أعظم آباءنا يعطون دون أن يأخذوا. لا يخدعك عمر أبيك والشعر الأبيض الذي يشتعل في رأسه، في داخله طفل يحتاج إلى ابتسامتك وهداياك.

أسعد رجل في الرياض

في عام 1987 تعرض الشاب أسعد بن محمد الدايل إلى حادث مروري مروع في الرياض وهو في طريقه إلى رفع الأذان مناديًا لصلاة الفجر. أدى هذا الحادث إلى دخول المؤذن الشاب في غيبوبة طويلة جدًا لم يعتقد أكثر المتفائلين أنه سيخرج منها حيًّا. لكن الله سبحانه وتعالى كان كريمًا. كتب له عمرًا جديدًا. أفاق أسعد من الغيبوبة لكن استيقظت في جسده آلام ما زال يعاني منها حتى اللحظة. تعرض إلى شلل نصفي ومضاعفات وأمراض جعلته أسيرًا للوجع المزمن.

رغم كل الأنباء الحزينة التي هطلت على أسعد إلا أن ولادة ابنه عثمان في نفس الفترة التي تعرض فيها إلى الحادث خففت حدة آلامه وأعطته مساحة كبيرة للأمل. كان كلما شاهد ابتسامة ابنه الصغير عندما تضعه أمه بجواره على فراشه يشعر برغبة جامحة للخروج من المستشفى الذي رقد فيه عدة أشهر.

كان عثمان الدافع الأول بعد الله سبحانه وتعالى في تحسن حالته وقدرته على التحرر من السرير. خرج أسعد أخيرًا على كرسي

متحرك وحاول أن يستأنف دراسته في جامعة الإمام محمد بن سعود لكن ظروفه الصحية المعقدة ومرافق الجامعة غير المهيأة لاستقباله، وقتئذ، حالتا دون معانقته لحلمه الذي لم يتبق على وصوله إليه كثير.

استمد أسعد الكثير من الإصرار من زوجته الطبيبة التي آثرت أن تسخر حياتها لخدمة زوجها المنكوب. كان هذا الوفاء ضوءًا ينير طريقه المظلم وغير المعبد.

أم عثمان كانت زوجة وطبيبة وممرضة له في نفس الوقت ساهمت بشكل كبير في خروجه من الأزمة النفسية التي حاصرته خلال سنواته الأولى بعد الحادث.

عاد أسعد إلى حياته الطبيعية رويدًا رويدًا حصل على وظيفة ضخ فيها الكثير من طاقته وأفكاره وحيويته. ظل يحلم ويمضي غير مكترث بالعوائق والصعاب والتحديات التي تكتنف مسيرته. كان عثمان وأمه خير داعمين له للاستمرار في الأمل والعمل.

لكن في وسط الأحلام تعرض أسعد إلى نكبة جديدة تتمثل في غرق ابنه الوحيد ووفاته في البحر أثناء إجازة صيفية على ساحل الخليج العربي.

توفي ابنه وفلذة كبده الذي قد لا ينجب غيره فأحس بألم شديد هذه المرة ابتلع كل ما تبقى من أحلامه.

الألم لم يجتح أسعد وحده بل كل أقاربه وعلى رأسهم زوجته وأم ابنهما الوحيد «عثمان»، اعتقد الجميع أن وفاة عثمان هي نهاية أسعد.

لكنه كعادته استيقظ كطائر النورس من ركام الأحزان ليواصل ما بدأه من حلم وأمل.

افتتح غير مشروع تجاري. وساهم في أكثر من مشروع خيري بكل ما أوتي من قوة وحماسة كأنه لم يتألم قط، ولم يعان أبدًا رغم أنه يتجرع الألم والمعاناة يوميًا دون أن يقنط من رحمة الله.

يقوم أسعد في رمضان بالإشراف يوميًا على مائدة الإفطار في حيه بعد أن يعود من دوامه في الحرس الوطني. يواصل الليل بالنهار ليؤمن حياة كريمة للكثير من الأسر المتعففة الجائعة بفضل علاقاته وإخلاصه.

إن الجميل أسعد بن محمد الدايل يقدم لنا درسًا عظيمًا في الصبر والكفاح. في الجدية والمثابرة. أعرف الكثيرين ممن ابتلاهم الله بما هو أقل بكثير مما تعرض له أسعد لكنهم يئسوا واستغنوا عن أحلامهم. أذعنوا لحزنهم ورضخوا لإحباطهم.

ثمة مسؤولية على عاتقنا جميعًا تتمثل في إشاعة التجارب المضيئة كالتي يجسدها هذا النبيل وزوجته لندرك «أن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه»، وأننا وحدنا من نصنع نهايتنا. فما دمنا على قيد الحياة مازال بوسعنا أن ننير ونستنير وأن ننجح ونفلح.

لو كان أسعد في مكان آخر في هذا العالم لحظي بتقارير تلفزيونية مصورة ولقاءات صحفية مطولة وحوارات إذاعية ممولة. فنحن للأسف نتقن الإهمال ولا نجيد الإلهام. نتجاهل نماذجنا

المشرقة ونستذكر النماذج السطحية التي لا تجيد إلا صناعة السذاجة والتفاهة.

مجتمعاتنا بأمس الحاجة إلى إبراز هذه الشخصيات عرفانًا وامتنانًا لما قدموه، واستثمارها في التصدي للإحباط الذي بدأ يستفحل في أعماقنا صغارًا وكبارًا.

إن من يرى ابتسامة أسعد محمد الدايل سيحسبه أسعد رجل في الرياض بينما يعد من أكثر أبناء الرياض ألمًا. نحن من نقرر مصائرنا... هل نكون سعداء أم تعساء مهما واجهتنا من ظروف ولنا في أبي عثمان أسوة حسنة.

لماذا يحب أبناؤنا الغرباء؟

استوقفني وطفلتي (5 سنوات) ممرض بريطاني أثناء زيارتي لصديق في مستشفى بمانشستر. اعتقدت للوهلة الأولى أنه سيمنعها من الدخول بذريعة أن الزيارة للكبار فقط. لكنه سألها عما تمسكه في يدها. فأجابته بأنه دفتر وقلم صغير اشتريتهما للتو من الدكان الذي يقع في الطابق الأرضي للمستشفى. فقال لها: «أوه... أنا ظننتك نادلة في مطعم بسبب ما تحملين في يدك، هل أطلب طعامًا سيدتي». فابتسمت وقالت:» نعم». فردّ عليها: «أريد بيتزا حجم متوسط، تعلوها طماطم وجبن وفلفل أخضر. كما أفضل دايت ببيسي، لوسمحتِ». تظاهرت ابنتي بأنها تكتب ما يمليه على مسامعها. وعندما أنهى طلبه سألها أن تريه ما كتبت. ناولته الدفتر فلم يجد شيئًا. قال لها: «لماذا لم تكتبي طلبي؟». ردّت عليه بصوت خفيض: «لا أعرف تهجئة ما طلبت». فقام بتهجئة الطلب مجددًا حرفًا حرفًا، وكان يراقبها وهي تكتب كل حرف في الدفتر ويساعدها على كتابته. وبعد أن انتهت من كتابة طلبه على نحو صحيح بسطت يديها الفارغة داعية إياه لالتقاط البيتزا المزعومة من يديها الصغيرتين. شكرها بحرارة ثم ودعناه،

واتجهت معها نحو غرفة صديقي. بعد أقل من 5 دقائق أطل الممرض ديفيد من جديد ومعه علبة ألوان صغيرة أهداها لابنتي، مؤكدًا أنها مكافأة لها على البيتزا الشهية التي أحضرتها له، وهو يضع يده على بطنه ويزم شفتيه تعبيرًا عن لذة البيتزا التي يدعي أنها قدمتها له. ثم قال لها «هناك في آخر الممر غرفة ألعاب بإمكانك أن تلعبي فيها متى ما أحببتِ». فور أن فرغت من عيادة صديقي ذهبنا معًا إلى غرفة الألعاب التي أرشدنا إليها ديفيد، لم تمض سوى دقائق محدودة إلا وابنتي سفانة تهزني بقوة. قلت لها: «ماذا تريدين؟» فأجابت: «ديفيد».

سحر ديفيد ابنتي أكثر من الألعاب المختلفة التي تتراقص أمامها. أحبت سفانة الممرض لأنه تحدث معها، وأصغى إليها، وقبل ذلك منحها وقته. أحبته الطفلة لأنه أعطاها ثقة كبيرة في نفسها خلال لحظات. جعلها تؤمن أنها تستطيع أن تتحدث مع كبار ويعيرونها جل انتباههم. هذه الثقة لا تهبها الألعاب، وإنما نحن. لاحظت أن معنويات ابنتي ارتفعت كثيرًا بعد اللقاء العابر مع ديفيد. صارت لينة أكثر معي ووالدتها تلك الليلة. تبتسم أكثر وتتذمر أقل. إننا نمنح أطفالنا الألعاب ولا نمنحهم الثقة. الألعاب تصغر عنهم، لكن الثقة تكبر معهم.

تشكلت لدي قناعة راسخة منذ لقائي بالممرض، طيب الذكر، تتمثل في ضرورة أن أمنح طفلي وقتًا أكبر واهتمامًا أكثر. فالبهجة الكبيرة التي أشعلتها دقائق صغيرة ألهمتني وحفزتني. لاحظت بعد التجربة الفرق في معنويات ابنتي ومشاعرها وحتى ثقتها في نفسها.

انعكست هذه الساعات التي أنفقتها مصغيًا ومتحدثًا على علاقتي بها وعلاقتها بمحيطها. ليس الكبار وحدهم يفضلون من يستمع إليهم فحتى الصغار يفعلون. نقلل أحيانًا من شأن وعي أطفالنا من حيث لا نحتسب. نعتقد أننا بالألعاب والحلويات نستطيع أن نعوض غيابنا عنهم ونكسبهم، بينما في الحقيقة نخسرهم، فلا شيء يعدل وقتنا معهم، يشعرهم بالطمأنينة والثقة التي لا تتوافر في أعظم لعبة في العالم.

من المحزن أن نشاهد شخصًا كريمًا في الوقت مع أصحابه بخيلاً به مع أطفاله. عندما يكبر أبناؤنا سنشعر بفداحة ما ارتكبناه في حقهم وفي حق أنفسنا. سنجدهم قريبين من الغرباء، بعيدين عن الأقرباء. فالغرباء هم وحدهم من أصغوا إليهم، وتحدثوا، وضحكوا معهم. هم الذين أشعروهم بكيانهم ووجودهم. سنندم حينها كثيرًا ونعمل ونأمل أن نصوب ما ارتكبناه مبكرًا. لكن للأسف سندرك أن الوقت الذي بددناه سابقًا لا يرد ولا يستبدل.

الانتقام الخلاق

اشتهر، رالف ليبزشيتز، في المرحلة الثانوية بسبب ربطات العنق التي يبيعها لرفاقه في المدرسة. كان يعرض عليهم ربطات عنق غير مألوفة. تمتلئ بصور مشاهير وشخصيات كارتونية وحروف ضخمة. يشتريها من الباعة الجائلين والأسواق الرخيصة ويبيعها بأسعار مضاعفة على زملائه. نجح في مدرسته، دي ويت كلينتون، من تعزيز رصيده المعرفي والمالي. كان رالف يعود إلى منزله مالئًا رأسه بالمعلومات وجيبه بالنقود. لكن رغم كل ذلك كان تعيسًا. ربما أتعس طالب في المدرسة. فاسم عائلته كان مصدرًا لتهكم بعض زملائه. فهو يشتمل على مفردة (شيت)، وهي لفظة بذيئة في اللغة الإنجليزية. حاولت إدارة المدرسة معاقبة من يسخر منه إثر اسم عائلته، لكنها لم تستطع إيقافهم تمامًا. كان بعضهم يتحايل على تهديدها بكتابة رسائل ساخرة ويضعها في حقيبته، أو يرددها عندما يدير ظهره لهم. رغم الحزن الذي عاشه طيلة المرحلة الثانوية إلا أن الأسوأ كان في حفل تخرجه. فعندما وزعت إدارة المدرسة (كتاب المدرسة)، الذي يحمل صور طلاب الثانوية وأمنياتهم، ترك الجميع الأمنيات والصور

في الكتاب وتحلقوا حول أمنية رالف، التي تكمن في أن يصبح مليونيرًا. أمطروه بوابل من التهكم والسخرية اللاذعة بسبب عبارته الحالمة مما دعاه لعدم إكمال الحفل والعودة حانقًا وخائبًا إلى منزله.

التحق رالف بعد تخرجه في الثانوية بكلية باروك لدراسة إدارة الأعمال وغير اسم عائلته إلى لورين تجنبًا لجولة جديدة من السخرية، لكنه لم يتابع دراسته. آثر أن يعمل مندوبًا للمبيعات في شركة بروكس بروذرز لاكتساب خبرة تساعده على افتتاح متجر مستقل. بعد عدة سنوات وتحديدًا في عام 1967 افتتح رالف لورين، بدعم من مصانع مانهاتن للملابس، متجرًا خاصًا لبيع أربطة عنق من تصميمه باسم (بولو). وحقق متجره نجاحًا كبيرًا شجعه على التوسع والدخول في تصميم القمصان والسترات والسراويل والإكسسورات. وخلال سنوات قليلة أصبح اسم (رالف لورين) علامة تجارية معروفة ليس في أميركا فحسب بل في العالم بأسره. وفي سبتمبر 2011 قدرت مجلة (فوربز) ثروته بنحو 6 مليارات كأحد أثرياء العالم.

النجاح الذي حققه رالف لم ينسه رفاقه في المدرسة الذين تهكموا عليه وعلى أمنياته مبكرًا. لقد قام في عام 1996 بعد أن بلغت شهرته الآفاق بإحضار (كتاب مدرسته) عام 1957 الذي يضم أسماء رفاقه في المدرسة وصورهم وطلب من سكرتيرته محاولة البحث عمن وضع تحت اسمه خطًا. بعد أشهر من البحث والتقصي وجدت عناوين منازل معظمهم واتصلت بهم للتحقق من ذلك. أرسل رالف

لكل واحد منهم مجموعة من منتجاته الفاخرة وبرفقتها رسالة بخط يده نصها: «ربما تذكرني وعلى الأرجح لا. لكن أنا أذكرك جيّدًا. أنت وراء نجاحي. شكرًا لك. رالف ليبزشيتز سابقًا، رالف لورين حاليًا». كان رالف يدرك أن تهكم زملائه زاده إصرارًا على مواصلة طموحه والوصول إلى مبتغاه. كان يرى وجوههم وهم يسخرون منه كلما تعثر فينهض. لم يكن ذلك الطرد البريدي الأخير الذي أرسله رالف لزملاء فصله السابقين بل كان الأول. لقد حرص منذ أن عثر على عناوينهم أن يبعث لهم أي تشكيلة جديدة.

إن رالف لم يدع كلمات التهكم تحطمه بل تدفعه إلى الأمام. كما أنه لم ينس من أساؤوا إليه، وإنما وجه إليهم درسًا بتسامحه وعفوه وقبل ذلك استثماره لتهكمهم لقيادته إلى النجاح. أوصل إليهم رسالة ذكية وحضارية بأنه ما زال يتذكر سخريتهم جيدًا، بيد أن هذه السخرية لم تكبح جماح طموحه بل ساهمت في صعوده.

جميل أن نُشعر من أساء إلينا بحجم خطئه حتى لا يكرره معنا ومع غيرنا.

أغلبنا مر أو مرت عليه قصص مشابهة. تعرض أو سمع عن قصص تهكم لا حصر لها. يروي لي صديقي القادم من إحدى القرى النائية في الوطن العربي للدراسة في أميركا أن أحد أبناء جلدته، الذي التقاه فور وصوله في مطار شيكاجو سخر منه عندما أبدى له رغبته في متابعة دراسة الدكتوراه في جامعة شيكاجو، إحدى أعرق

الجامعات حول العالم. ونصحه بعدم إهدار سنوات عمره في حلم لن يتحقق، قائلاً: «أنصحك، أن تدرس لغة إنجليزية ثم تعود لأهلك وتبحث عن وظيفة». هذا ما قاله أمامه. ولا نعلم ماذا كان يبطن في جوفه. صديقي اليوم لم يتخرج من شيكاجو ولكن تخرج من جامعة لا تقل عنها عراقة وأهمية وربما تتجاوزها في بعض التخصصات وهي جامعة (إم آي تي)، التي تخرج منها أهم العلماء المعاصرين والسابقين. صديقي يتمنى لو أنه حصل على اسم مواطنه الذي أوصد الأبواب في وجه حلمه في مطار شيكاجو ليخبره بما وصل إليه اليوم.

علينا ألا نقلل من حلم أي إنسان مهما كان. فمن نراه شخصًا بسيطًا اليوم ربما يكون شخصًا مدهشًا وبديعًا في الغد. النجاح ليس أن تحقق النجاح، بل أن تستمر فيه وتحافظ عليه. فطالما كانت تسحرنا أسماء مبكرًا، في حين نراها باهتة ومرتبكة اليوم. وما كان يعد نجاحًا في الماضي ربما سيعتبر تقليديًا في المستقبل. كل مرحلة لها نجومها ومواصفاتها ومعاييرها.

ينبغي ألا نسمح لانطباعاتنا السريعة أن تقودنا لإفشاء أو حتى إبطان أي تنبؤ سلبي تجاه أي أحد. من الحكمة أن ننفق أوقاتنا في تطوير قدراتنا وتنمية ذواتنا. من ينشغل بالآخرين والتوقعات فلن يجد وقتًا للإنجازات.

ضفدع جوانغ زي

طلبت المعلمة اليابانية هيرو يامادا من طلابها الصغار، الذين لا تتجاوز أعمارهم 15 عامًا، في مدينة ناجانو أن يبحثوا أسبوعيًا عن مقولة شهيرة لأحد الفلاسفة القدماء للقيام بتحليلها وتشريحها ونقدها. كان أداء الطلاب مذهلاً رغم جسامة المهمة. كانوا يتنافسون فيما بينهم بحماسة على تحطيم العديد من المقولات الشهيرة بحجج وبراهين مثيرة. أشعلوا الفصل نقاشًا وسجالاً فكريًا. نجاح فكرة المعلمة يامادا جعلها تنتقل من فصل إلى آخر، من مدرسة إلى أخرى حتى عمت أنحاء البلاد. الطالبة تابايمو بدورها تصدت للفكرة على نحو مختلف. اختارت مقولة وردت عليها رسمًا وليس كتابة وارتجالاً كالآخرين. احتجت على مقولة، ذائعة الصيت، للفيلسوف الصيني، جوانغ زي، عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، يقول فيها: «الضفدع، الذي في البئر لا يعرف شيئًا عن المحيط». رسمت تابايمو عدة لوحات تشرح فيها أن الضفدع في البئر يرى ما يدور في المحيط خلاف ما يزعمه جوانغ زي. الأولى لضفدع في بئر يحدق في السماء. الثانية لسماء تحولت لمرآة. الثالثة لمرآة تعكس للضفدع ماذا يجري

في المحيط. والأخيرة كانت للضفدع وهو يراقب المرآة كأنه يشاهد فيلمًا، مستلقيًا على ظهره وهو يتابع ما يجري في المحيط بدقة ووضوح ومتعة. نالت تابايمو إثر هذه اللوحات الأربع تصفيقًا من زملائها وتقديرًا كبيرًا من معلمتها يامادا ومدرستها. أصبحت تابايمو أشهر طالبة في مدرستها وربما في مدينتها رغم أنها لم تكمل الخامسة عشرة حينها. فقد كان يضرب بها المثل في خيالها الواسع ومهارتها في الرسم. التشجيع الذي وجدته تابايمو مبكرًا جعلها تنصرف عن دراسة الأحياء. رأت أن الفن هو مكانها ومستقبلها.

تخصصت في الفن والتصميم في جامعة كيوتو. وركزت على الرسوم المتحركة. قدمت أعمالاً مميزة جعلتها لا تستقر في اليابان أكثر من أسبوع واحد متواصل. فمن الصين إلى الفلبين، ومن هنغاريا إلى بلغاريا. شاركت في سبعة معارض في أمريكا، وخمسة في المملكة المتحدة، وأربعة في إسبانيا. وكرمها وطنها بتمثيله رسميًا في بينالي البندقية 54 في إيطاليا الذي انطلق في الرابع من يونيو 2011. ولم تجد تابايمو عملاً أكثر قربًا إليها من «ضفدع جوانغ زي» لتقديمه من خلال البينالي، الذي يقصده ملايين المتذوقين للفنون المعاصرة. وقد حولت تابايمو اللوحات التي رسمتها مبكرًا ونالت استحسان زملائها ومعلمتها يامادا إلى فيلم رسوم متحركة بمؤثرات صوتية وتقنيات متعددة جعلته يحوز على إعجاب جمهور البينالي الذي تدفق على الجناح الياباني وحدانًا وزرافات.

وظهرت الفنانة الشابة تابايمو (36 عامًا) في البينالي الذي يبلغ عمره نحو 116 عامًا بفستان بسيط تعلوه صورة معلمتها هيرو يامادا التي شجعتها مبكرًا على إطلاق العنان لخيالها مما جعلها تصل لما وصلت إليه اليوم من نجاح وشهرة كبيرين. الإعلام الياباني والإيطالي والعالمي الذي كان يغطي البينالي لم يسلط الضوء على تابايمو وضفدعها فحسب، بل تطرق إلى يامادا، وأجرى معها حوارات هاتفية. وأشارت يامادا في تصريحاتها الصحفية إلى أنها سعيدة جدًّا أن فكرتها الصغيرة بتشجيع الطلبة الصغار على نقد آراء الفلاسفة والعلماء مازالت تحصد النجاح.

يامادا واجهت مبكرًا الكثير من التحفظات من زملائها تجاه فكرتها المبكرة. لكن واصلت مشروعها بثقة. إن علينا أن ندرك أن الأفكار الجميلة هي التي لم يسبقنا إليها أحد. وأن أجملها على الإطلاق هي التي تجد مناهضة ومعارضة في البداية. فالمرء عدو ما يجهل. إن النجاح الذي حققته تابايمو لا يعكس موهبتها فقط، وإنما يعكس البيئة المحفزة التي نشأت فيها وشجعتها وأقرانها على عدم إعادة تدوير المقولات والأمثلة والأفكار التي كانت تتردد في سالف العصر والزمان بل باختراع صيغ جديدة تثير الدهشة والأسئلة معًا. وتؤكد أن الأجيال الحالية قادرة على مقارعة الأوائل بل والتفوق عليهم. فلا غرابة أن نشاهد اليابان اليوم في صدارة الدول المنتجة والمتفوقة التي تنجب مئات العلماء والمبدعين الجدد الذين يحصدون جوائز وإعجابًا في

كافة المجالات والفنون ابتداء بنوبل وليس انتهاء ببينالي البندقية.

تقديس شخصياتنا وتراثنا وعدم استيعاب الآراء الجديدة جعلنا ندفع ثمنًا باهظًا. باهظ جدًّا. حرمنا من التقدم والتعلم وجعلنا أسرى للألم. فكم من فكرة وئدت في مهدها. إن أعظم فكرة... هي الفكرة غير التقليدية.

لماذا نتفاءل؟

في 12 نوفمبر 2009 أرسلتُ مسودة مقالتي كالمعتاد إلى زوجتي؛ لأستأنس برأيها حولها قبل أن أدفع بها إلى النشر. ردّت على رسالتي الإلكترونية بشكل مقتضب لم أعهده: «جيدة. لا توجد لديّ أي ملاحظات حولها». استغربت إجابتها الموجزة. واستغربت أكثر خلوها من أي وجه تعبيري، فلقد اعتادت زوجتي أن تملأ الرسالة بابتسامات ووجوه افتراضية. لم أفكر طويلاً في تعليقها وغياب وجوهها. أرسلت المقال إلى الصحيفة حتى لا أتأخر، ثم اتصلت بها ا لاحقًا. أجابتني ببرود غير مسبوق ونبرة تخبئ نبأً حزينًا خلفها. شعرت أن هناك مصيبة، لكن لم أكن أرغب في سماعها. حاولت أن أتحاشى سؤالها عن أي شيء قد يحفزها لتفجير الحزن في أذني. لم أجد سبيلاً للفرار سوى ادعاء انشغالي بأي موضوع؛ لأغلق السماعة وأهرب من مواجهة حشود الحزن التي تتربص بي ريب المنون، لكن زوجتي أحبطت مخططي. اعتقلتني بجملة صغيرة، لكنها كبيرة جدًا، قالت بصوت خفيض: «أحمد لن يأتِ. أحمد مات». قلت لها: »كيف؟». لكن لم تجب. ناولت أمي السماعة لتشرح لي تفاصيل وفاة الجنين في أحشائها وهو في شهره السابع تقريبًا. تألمت

كثيرًا بعد سماع النبأ. تألمت كثيرًا كوني في قارة وزوجتي في قارة أخرى في مثل هذه الظروف. كنا ننتظر أحمد طويلاً. اشترينا له ملابسه حتى عامه الأول. ابتعنا له قمصانًا زرقاء فاتحة تحلق فيها الطيور، وجوارب تبتسم في داخلها قطط أليفة.. وسراويل تسبح على ضفافها أسماك نزقة، وبيجامات تقطنها دبب كسولة، وحذاء بعجلات، وسيارة رياضية صغيرة بلا سقف، وطاقية مطرزة بجنيهات فضية.

اخترنا له أثاث غرفته وألعابه وملابسه وحتى تسريحة شعره.. اخترنا له فريقه المفضل ولونه المفضل.. لكن وفي غمرة استعدادنا لاستقباله قرر ألا يجيء.. ربما احتجاجًا على استبدادنا. ودعناه قبل أن يشاهد ألبوم صوره جنينًا وهو يتقلب ويكبر في رحم أمه.

عشنا أيامًا عصيبة بعد توقف نبضه. أمه كانت أكثرنا حزنًا. فلم تلبث أن تفقد أمها الشابة بخطأ طبي، حتى فقدت جنينها وهو على وشك الوصول.

كنا في عزاء طويل، حتى حملت زوجتي بعد عدة شهور، لكن أجهضت في أسابيعها الأولى هذه المرة. حملت مرة أخرى بعد عام ونصف. وكان الحمل قاسيًا وصعبًا إثر ظروفها الدراسية والنفسية وواجباتها المنزلية. تملكنا شعور أن هذا الحمل لن يستمر كسابقيه. الفريق الذي يخسر كثيرًا يشعر أنه لن يفوز. كانت زوجتي تضع يديها باستمرار على بطنها لتستشعر نبض الجنين خشية أن يتكرر الحزن.. كلما تقدمت في حملها زاد قلقنا وتعاظمت شكوكنا. وفي خضم توترنا

شعرت زوجتي في شهرها السابع بآلام المخاض. كشف عليها الطبيب ورآها آلامًا اعتيادية لا تستحق القلق وطلب منا أن نعود أدراجنا. لكن ألمها لم يتوقف، بل كان يتفاقم. توسلت الطبيب ألا تغادر المستشفى وتظل تحت المراقبة الطبية حتى يخف الألم. وافق على مضض. تركتُ زوجتي في المستشفى وذهبت إلى المنزل. وقبل أن أصل إليه اتصلت بي زوجتي وهي تنتحب: «سينقلونني فورًا إلى غرفة الولادة.. تعال بسرعة». عدت إلى المستشفى بسرعة البرق. استقبلني الطبيب وهو يحمل تعهدًا بيده. أشعرني أن وضع زوجتي حرج. ولا يضمن أن يعيش الجنين. العملية صعبة والجنين ضعيف في أسبوعه الثامن والعشرين. انهرتُ وأنا أوقع. تخيلت وجه زوجتي، لو تعرض الجنين لأي مكروه، لا سمح الله، كيف ستكون حياتنا؟ متى سأشاهد ابتسامتها مجددًا؟ ذهبتُ إلى غرفة الولادة وهناك استقبلتني بيدها. وضعت زوجتي أحمد بحمد الله وتوفيقه بيسر وسهولة خلاف التوقعات. نقلوا أحمد على جناح السرعة إلى حاضنة الأطفال قبل أن أشاهده. بعد نحو 10 دقائق دعتني الممرضة لإلقاء النظرة الأولى عليه. وضعت قبلة على جبينه وهو على سريره، ثم سجدت لله شاكرًا.

إن كل ما يحدث لي ولغيري يدفعني للإيمان بأن الغد أجمل مهما كان اليوم قاسيًا، وأن الصعوبات التي نتعرض لها وتعترض طريقنا تجعلنا أكثر قوة وصلابة وأكثر امتنانًا للأنباء السعيدة أكثر من أي وقت مضى.

يجب أن نؤمن بما قاله الشاعر أبو الفتح البستي:

ما بين غمضة عين وانتباهتها   يغير الله من حال إلى حال

وندرك أن التفاؤل هو الحل لمواجهة أزماتنا وأيامنا الحالكة.

الحزن، الذي يعبر حياتنا مؤقت وغير مستمر. سيجيء يوم يهزمه الفرح ويحتضر.

بنك الخوف

لا يوجد مشروع كامل في هذا العالم، ولا يوجد مشروع بلا مخاطرات.. المشروع الذي لا يثير أسئلة وقلقًا وانتقادات لا يصح أن نسميه مشروعًا.

احتفظ الطبيب الشاب تشارلز ريتشارد درو، بمقالة علمية كتبها لعدة سنوات في درج مكتبه. خشي أن يؤدي نشرها إلى جدل علمي يؤثر على مستقبله البحثي. آثر أن ينتظر حتى يصنع اسمًا جديرًا في مجاله، لكن أحد زملائه، الذي زاره في شقته واطلع عليها شجعه ألا ينتظر أكثر.

نشر تشارلز المقالة على مضض. استقبلها علماء وباحثون باحتفاء كبير. احتفاء فاق توقعاته وخياله. أدت مقالته، (بنك الدم)، التي نشرها في عام 1940 إلى انتشار بنوك الدم. لقد أحدثت مقالته (ثورة) في نظام تخزين آمن للدم يحول دون تلوثه.

ذهبت شكوك تشارلز المبكرة أدراج الرياح بعد أن حظي اكتشافه العلمي بتقدير العلماء وامتنانهم.. بإعجابهم واعتزازهم. مات تشارلز بعد سنوات قصيرة من اكتشافه الفريد. توفي إثر حادث سيارة قبل أن يكمل 45 عامًا.

تساءلت بيني وبين نفسي عن مصير هذا الاكتشاف العلمي العظيم لو مات تشارلز قبل أن ينشره؟

تساءلت عن الكثير من الاكتشافات والمبادرات التي دفناها لأسباب واهية.

إننا في أحيان كثيرة نخشى من أشياء لا وجود لها. نقلل من أثر وقيمة ما نملكه من خلال ادخاره لأنفسنا وعدم إفشائه. الأفكار العظيمة لن تكون عظيمة إذا ادخرناها. لن يكون لها أثر وتأثير إذا لم يلمسها الناس ويشعروا بها ويتحدثوا حولها.

علينا أن نثق بما نقوم به ولا نذعن للخوف في داخلنا إذا أردنا النجاح. ليس عيبًا أن نتعرض للهجوم والانتقاد إثر ما قمنا به، لكن الخطأ ألا نحاول.

وجود الطفل في داخل رحم أمه أكثر من 9 أشهر يشكل خطرًا عليه وعلى أمه وكذلك الأفكار والمشاريع.. الاحتفاظ بها طويلاً قد يسممها ويفسدها ويقتلها ويقتلنا حسرة.

الطبيب والباحث تشارلز رغم ما وصل إليه من وعي وفهم وتميز إلا أنه كاد يذهب ضحية لسوء التقدير.. كاد يدفن معه فكرة عظيمة أسهمت في الحفاظ على عدد من الأرواح بعد فضل الله.

ما حدث لتشارلز ينبغي أن يلهمنا ويحفزنا لقمع الخوف في داخلنا وعدم الركون للأصوات المثبطة التي تصرخ في أعماقنا. كُرِّم تشارلز عندما رحل بحصوله على وسام التميز من الجمعية الوطنية

عام 1950 وفي عام 1981 عندما صدر طابع بريد باسمه. ربما كان سينال جائزة نوبل وغيرها من الجوائز المرموقة وهو حي يرزق لو استعجل في طرح اكتشافه ولم يتأخر.

لدى أحد أصدقائي مشروع تأليفي واعد يحدثني عنه منذ سنوات، لكن في كل مرة أسأله عنه يجيبني بأن الفكرة ما زالت تختمر في رأسه.

قبل أسابيع قال لي إنه صرف النظر عنه نهائيًا بعد أن تصفح إصدارات جديدة مشابهة. حاولت ثنيه عن قراره دون جدوى. يؤمن صديقي بأن مشروعه الأول يجب أن يكون مختلفًا وكاملاً.

إن المؤلف الجيد لن يصبح جيدًا إلا بعد الكثير من المحاولات والتجارب.. كاللاعب تمامًا.

ثمة حقيقة ينبغي أن نعرفها جميعًا تتمثل في أنه لا يوجد مشروع كامل في هذا العالم، ولا يوجد مشروع بلا مخاطرات. المشروع الذي لا يثير أسئلة وقلقًا وانتقادات لا يصح أنه نسميه مشروعًا.

الخوف عندما يتملكنا يلوث مواهبنا ومبادراتنا. أضاع الكثير من اللاعبين ضربات جزاء وركلات ترجيحية مفصلية بسبب الخوف الذي داهمهم واستسلموا له. يقول إديسون: «يفكر الخائف أمام الخطر بساقيه». فالشخص منا عندما يصاب بلوثة الخوف ينسى عقله. والشاعر فرجيل يحذرنا منه قائلاً: «الخوف يصنع أجنحة للنعال».

نئِدُ أفكارنا بسبب خشيتنا من ردود فعل الناس. نردد دائمًا (ماذا سيقول الناس عني؟) سيقولون إنك جميل وعظيم ورائع، لكن دعهم يروا شيئًا!

أغنى طفل في العالم

إذا أرادت مجتمعاتنا أن تعزز مفهوم التكافل الاجتماعي عليها أن تزرع في أطفالها روح المبادرة. إذا لم نغرس في دواخلهم المفاهيم الإنسانية النبيلة فلن نجني مجتمعات واعية ومتكاتفة.

فاز الصغير بيلي جو توماس (11 عامًا) برحلة لأربع أشخاص إلى مدينة الألعاب الشهيرة (ديزني لاند) في كاليفورنيا؛ إثر نجاحه في بيع 801 تذكرة لأحد العروض المسرحية في مدينة سياتل الأميركية في زمن قياسي. في نفس اليوم الذي فاز فيه بيلي بالجائزة شاهد برنامجًا تلفزيونيًا عرض حوارات مع أطفال مصابين بالسرطان. تأثر بيلي كثيرًا عندما سمع أحدهم يقول للمذيع بصوت يغمره الحزن: «ربما سأموت خلال شهرين من الآن». قرر بيلي أن يسعد هؤلاء الأطفال ويمنحهم جائزته قائلاً لوالديه: «أليس عظيمًا أن يذهب هؤلاء الأطفال إلى (ديزني لاند)؟». في اليوم التالي، ذهب بيلي إلى مركز علاج أورام السرطان برفقة والدته. قابل المدير وأخبره برغبته في منح الجائزة، التي حصل عليها أخيرًا إلى أطفال المركز. شكره مدير المركز بحرارة، وطلب منه أن يلتقط له صورة؛ ليضعها

في نشرة المركز الداخلية والصحف المحلية. ابتسم بيلي للكاميرا وغادر بصحبة والدته. في الأسبوع التالي، ابتسامة بيلي دخلت كل منازل سياتل وأميركا. تصدرت صورته صحيفة سياتل، تحت عنوان: «بيلي... صانع الابتسامة». أغلب القنوات والإذاعات المحلية تقاطرت إلى منزله للحصول على الابتسامة من منبعها.

الأجمل من حصول بيلي على هذا العدد الوفير من اللقاءات والمقابلات هو حصوله على مكافآت مالية وهدايا جعلته أحد أثرياء سياتل الصغار، فضلاً عن 40 تذكرة إلى (ديزني لاند) من رجال أعمال رأوا أن يكافئوه على ما قدمه للأطفال المرضى.

مجتمعاتنا إذا أرادت أن تعزز مفهوم التكافل الاجتماعي عليها أن تزرع في أطفالها روح المبادرة. أطفال اليوم هم كبار الغد. إذا لم نغرس في دواخلهم هذه المفاهيم الإنسانية النبيلة لن نجني مجتمعات واعية ومتكاتفة.

إن أسهل طريقة لقراءة مستقبل الشعوب هو تصفح أطفالهم. فهم المقياس الأكثر دقة وموضوعية. وبيلي، هو ثمرة مجتمعات تعتني بمفاهيم التطوع والتكافل بشكل عملي.

فعندما يقرأ بيلي أن مواطنه رجل الأعمال وران بوفيت تبرع بنحو 30 مليارًا أميركيًا للأعمال الخيرية، ورجل الأعمال دونالد بيرن تبرع بما يقارب 20 مليون دولار أميركي لدعم المدارس في وطنه، ورجل الأعمال بيرنارد أوشير بـ700 مليون لتطوير مرافق الجامعات،

سيحرص هو الآخر على تقديم ما في وسعه لوطنه ومواطنيه صغيرًا وكبيرًا.

في المقابل، ننشأ في بيئة نرى فيها رجال الأعمال يقاتلون في سبيل ابتعاث أبنائهم على حساب الدولة، في حين بوسعهم أن يبتعثوا مدناً بمن فيها. ننبت في مجتمعات يزاحم فيها الأغنياء الفقراء على القروض و«حافز»، فيتعاظم الجشع في أنحائها!

إن رسولنا الكريم يقول: «ما نقص مال من صدقة». لكن يصر بعضنا على التبرع بقليل القليل مما انعكس سلبًا على مجتمعاتنا التي يسودها الألم.

رجال أعمالنا ومدارسنا ومنازلنا أمام مسؤولية كبيرة تتمثل في إشاعة ثقافة التكافل في المجتمع والعمل على تكريس مفهوم التآخي بين أفراده.

ليس وحدهم الفقراء هم من يحتاجون إلى مؤازرتنا ودعمنا، وإنما المرضى أيضًا. فهم في أمس الحاجة إلى زيارات وابتسامات تطفئ أوجاعهم وآلامهم. كم مرة سمعنا أن كبارًا وصغارًا ذهبوا إلى مستشفى لعيادة مريض لا يمت لهم بصلة؟

يقول الكندي جيف سكول، الرئيس المؤسس لشركة آي بي، للمزادات الإلكترونية، والذي تقدر ثروته بنحو 3 مليارات دولار أميركي: «كل مرة أزور مريضًا لا أعرفه، أعود إلى عملي بشهية مفتوحة».

علينا أن ندرك جيدًا أننا لن نتفضل على أحد عندما نقوم بزيارته أو دعمه، بل هو من يتفضل علينا. فبفضله سنحصل على سعادة وارتياح كبيرين.

إن الحقيقة التي ينبغي أن ندركها هي أننا قد لا ندخل قائمة أثرياء العالم مالاً، ولكن ربما ندخل قائمة البشر الأكثر سعادة إثر ما نقوم به تجاه محيطنا ومجتمعنا. ومن الجميل أن نتذكر دائمًا قوله عليه أفضل الصلاة والتسليم: «كل معروف صدقة».

أغلى كوب قهوة في التاريخ

في 27 فبراير عام 1992، قامت السيدة الأمريكية ستيلا لايبك (79 عامًا) من نيو مكسيكو، بطلب كوب قهوة من نافذة الطلبات الخارجية من مطعم ماكدونالدز للوجبات السريعة برفقة حفيدها الذي كان يقود السيارة. أوقف حفيدها سيارته بعد أن استلمت جدته طلبها؛ لكي تضع الكريم والسكر في قهوتها. وضعت كوب القهوة الورقي بين ركبتيها سعيًا لإزالة الغطاء. لكن خلال محاولتها لفتح الغطاء انسكب كوب القهوة بكامله على حضنها. اخترقت القهوة الساخنة ملابسها وتسببت في إصابتها بحروق من الدرجة الثالثة أدت إلى بقائها في المستشفى لمدة ثمانية أيام. وخضوعها إلى عمليات تجميلية، وخسارتها نحو 20 من وزنها، ومراجعتها للمستشفى لمدة عامين.

فكرت ستيلا بعد أن خرجت من المستشفى أن تتواصل مع مطعم (ماكدونالدز)؛ لتعويضها عن المبالغ التي تكبدتها في سبيل العلاج من الحروق التي تعرضت لها، والتي وصلت تكاليفها إلى 18 ألف دولار أمريكي. لكن شركة (ماكدونالدز) رفضت النظر في مطالب تسيلا وعرضت عليها 800 دولار أمريكي فقط.

نَقلت ستيلا لأصدقائها رغبتها في رفع دعوى قضائية على شركة (ماكدونالدز). بيد أن أصدقاءها سخروا منها وتهكموا على هذه الفكرة، راجينَ منها أن تنسى الحادثة وتبحث عن مصادر دخل جديدة تغطي مصاريف علاجها.

لم تعبأ ستيلا باقتراح أصدقائها مضت قدمًا في اتجاه رفع قضية على ماكدونالدز. اتصلت بالمحامي، ريد مورجان، الذي رحب بالتصدي لهذه المهمة وانتزاع التعويض المادي والمعنوي من ماكدونالدز. قدم مورجان لاحقًا دعوى في محكمة مقاطعة نيو مكسيكو يتهم فيها ماكدونالدز بـ«الإهمال الجسيم» في بيع قهوة «خطيرة بشكل غير معقول» و«مصنعة بشكل غير مسؤول».

رفضت ماكدونالدز عرض التسوية الذي عرضه المحامي، والذي وصل إلى 90 ألف دولار أمريكي. صعّد مورجان من لهجته وواصل حشد أدلته سعيًا وراء الحصول على التعويض المناسب. قدم المحامي أدلة على أن القهوة التي تقدمها ماكدونالدز في تلك الفترة ساخنة جدًا وتصل درجة حرارتها إلى 190 فهرنهايت (88 درجة مئوية) مما قد يتسبب في حروق من الدرجة الثالثة، وأكد محامي ستيلا أن درجة الحرارة المناسبة للقهوة ينبغي ألا تزيد عن 140 فهرنهايت (60 درجة مئوية). واستعرض مورجان، خلال المحاكمة، عدة دعاوى رفعها زبائن لمكادونالدز أصيبوا بحروق متفاوتة في فترات مختلفة؛ بسبب تقديمهم قهوة «ساخنة جدًا».

صوّتت هيئة المحلفين في 18 أغسطس 1994 على أن ماكدونالدز تتحمل 80% إثر إهمالها وستيلا 20% بسبب عدم حذرها. وعلى ضوء ذلك قررت المحكمة أن تعوض ماكدونالدز السيدة ستيلا بـ 160 ألف دولار أمريكي بسبب إصابتها بحروق من الدرجة الثالثة، و 2.7 مليون دولار تعويضًا عن الآثار النفسية والمعنوية التي تعرضت لها جراء الحادثة. لكن ماكدونالدز استأنفت القرار، ثم توصلت مع ستيلا إلى تسوية خارج المحكمة تتمثل في تعويض يقدر بنحو 600 ألف دولار أمريكي مقابل التنازل عن القضية وإغلاق ملفها.

هناك من سخر وتهكم على ستيلا في البداية، لكنها في النهاية انتزعت ما يقارب 600 ألف دولار أمريكي في قضية ما زالت محل جدل وتساؤل وإلهام في التاريخ.

ترافق السخرية دائمًا ولادة الفكرة العظيمة، كما يرافق البرق والرعد سقوط المطر. إنها مؤشر لهطول الغيث. ينبغي أن تسعدنا ولا ترعبنا.

كان من السهولة بمكان أن تفرط ستيلا بالقضية وتتنازل عن حقها وتسكت كما سكت العشرات قبلها، ولكنها اختارت الخيار الصعب. هذا الخيار تطلب الكثير من الصبر والعمل والمثابرة. لم يمنحها الآلاف من الدولارات فقط، وإنما جعلها تدخل التاريخ أيقونة للكفاح والجدية. النقود تذهب، لكن التاريخ لا يذهب. يرافق الأجيال على مر العصور.

عانى آلكثير منا من أخطاء تسببت فيها جهات عامة وخاصة، لكننا تجاهلناها تارة إيثارًا للسلامة، وتارة أخرى يأسًا، ومن يئس من الشيء استغنى عنه. لو نقرأ التاريخ بتمعن سنجد أن الكثيرين ممن دونوا أسماءهم بمداد من ذهب فيه هم من حاربوا وقاتلوا في سبيل ما يؤمنون به. لن يعانق النجاح من تثبطه كلمة أو تكسره جملة. سيفوز من يجعل الكلمات المثبطة سفنًا تقله إلى المكان الذي يشتهيه. الجزر العظيمة تحتاج إلى رحلات طويلة وشائكة لتصل إليها. لكنها تمنحك في النهاية فيئها وظلها وسكونها لتستلقي على ضفافها بسعادة.

الأشياء الصدئة لا تستعمل

الأفكار كالفاكهة يفضل أن نتناولها طازجة، إذا نضجت أكثر مما ينبغي انتهت صلاحيتها فلا تصلح للأكل ولا حتى للزينة، الكثير منا يدخرون أفكارهم لوقت طويل جدًا حتى تفسد الفكرة.

دأب الكثير منا على ترحيل مشاريعهم ومبادراتهم إلى الوقت المناسب غير مدركين أن الوقت المناسب سراب. والسراب لا يمكن أن نقبض عليه. إن التأجيل هو موت بطيء لمشاريعنا. تكريم مشاريعنا ومشاعرنا لا يتحقق إلا عندما نشرع في بلورتها وتحويلها إلى واقع نحسه ونلمسه ونستنشقه. الاحتفاظ بأحلامنا في أدراج صدورنا يجعلها تصدأ. والأشياء الصدئة لا تستعمل. إذا أردنا أن نحقق نجاحًا علينا أن نسارع في تنفيذ أفكارنا. إن الفكرة كالطائر لا تمنحك فرصة، إذا اقتربت منها طارت، عليك أن تقتنصها بذكاء قبل أن تفر منك أو يصطادها غيرك. التأجيل يفسد الفكرة ويصنع الحسرة.

إن من أبرز عيوبنا كمجتمعات عربية هو عدم الاكتراث بعامل الوقت والتعامل معه على أنه رصيد لا ينفد رغم أنه في الحقيقة أسرع الأرصدة زوالاً. الناجح هو الذي يستثمره كما ينبغي ولا يدعه يتسرب

من أمامه دون أن يصرف كل ثانية فيه بكل ما هو مفيد. حقق الكثير من المبدعين نجاحات كبيرة في يفوعتهم وفي أولى مراحل شبابهم. كان لويس برايل كفيفًا وصغيرًا عندما اخترع نظام برايل للمكفوفين، لم يتجاوز عمره حينها الـ15 عامًا. النجاح لا يحتاج إلى بصر وعمر، بل إلى بصيرة وصبر. لم ينتظر برايل طويلاً. قبض على الفكرة وتولاها بعنايته وذكائه حتى أضاءت وجعلت اسمه خالدًا حتى اليوم.

واستطاع الفيزيائي والرياضي والفيلسوف الفرنسي، باسكال بليز، اختراع الآلة الحاسبة وهو في عقده الثاني، واشتهر بتجاربه الفيزيائية على السوائل في سن مبكرة.

ونجح في التوصل إلى قانون فيزيائي سمي باسمه في مجال ضغط السوائل خلال الخمسينيات من القرن السابع عشر الميلادي. وساعدت تجارب باسكال على إثبات أن للهواء وزنًا، وأن ضغط الهواء يمكن أن ينتج فراغًا، وبذلك أزال شكوك العلماء في ذلك الوقت في إمكان وجود الفراغ. توفي باسكال وهو لم يكمل 39 عامًا، لكنه حقق ما لم يحققه الكثيرون ممن طال عمرهم وكثر تسويفهم وتأجيلهم، وكرمته فرنسا بوضع تمثال له من صنع النحات أوغستين باجو يعرض في متحف اللوفر.

أما جون هارفارد فقد بادر مبكرًا في تأسيس مكتبات، ومدارس، وكلية سميت باسمه بعد وفاته وصارت لاحقًا أحد أهم الجامعات على مستوى العالم. قام بكل هذه المبادرات وهو شاب. لقد توفي وهو في

الـ30 من عمره، هارفارد لم يعش طويلاً، عاش حياة قصيرة، مات عام 1638، لكنه لا يزال حيًا يردد اسمه الملايين شرقًا وغربًا كل يوم مرادفًا للعلم والمعرفة والعراقة.

كما نجح المهندس البريطاني إسامبارد برونيل في صناعة جسور عظيمة كجسر كليفتون المعلق، وأنفاق هائلة، وبواخر عملاقة، وهو في منتصف العشرينيات. توفي في مطلع العقد الخامس، لكنه ترك إرثًا يشعرك أنه عاش أكثر من 100 سنة. سُميت جامعة في بريطانيا باسمه ناهيك عن المراكز المعرفية والمكتبات العامة وحتى الحدائق مما يجسد حجم ما قدمه ويعكس التقدير والامتنان الذي يكنه له مواطنوه رغم رحيله المبكر.

إن الأفكار كالفاكهة يفضل أن نتناولها طازجة، إذا نضجت أكثر مما ينبغي انتهت صلاحيتها فلا تصلح للأكل ولا حتى للزينة، الكثير منا يدخرون أفكارهم لوقت طويل.(هذه الفقرة مكررة) طويل جدًّا حتى تفسد الفكرة. لا تنقص مجتمعاتنا الأفكار، لا ينقصنا سوى استثمار هذه الأفكار.

علينا أن ننتهز أي فكرة تخطر على بالنا ونبدأ في العمل عليها. علينا أن نشتغل وننشغل بها حتى تشرق وتضيء. إننا كمجتمعات أضعنا الكثير من أفكارنا. أهدرنا الكثير من أوقاتنا في انتظار ما لا يجيء، الوقت المناسب لا يجيء. إنه يذهب فقط.

شكرًا للنسيان

نسي الباحث الأسكتلندي، ألكسندر فلمنج، في عام 1928 قطعة خبز متعفنة قرب صحون بكتيريا كان يجري عليها تجاربه في المعمل. ولاحظ في اليوم التالي أن عفن الخبز استطاع أن يقتل البكتيريا المجاورة وإيقاف نموها، وليقطع الشك باليقين قام باستخدام أجزاء من عفن الخبز وحقنها في أنابيب تحتوي على بكتيريا خطيرة، وتأكد حينها فعلاً أن عفن الخبز (فطريات تنتمي إلى جنس البنسيليوم) أجهزت على البكتيريا وأردتها قتيلة. نشر فلمنج نتائج أبحاثه في دراسة علمية لفتت انتباه الباحثين الإنجليزيين، إرنست تشين وهوارد فلوري، اللذين طورا الدراسة وقاما باستخلاص مادة (البنسلين) وتنقيتها بعد مجهود شائك وطويل. ونجحا في صناعة عقار (البنسلين) العظيم الذي أسهم في إنقاذ حياة الكثيرين على مدى العقود الماضية، وأدى إلى إثراء الساحة الطبية بالكثير من الأبحاث والمضادات، وألهم آلاف الأطباء والباحثين حول العالم، الذين اكتشفوا عقارات خدمت البشرية أجمع. وإزاء هذا الفتح العلمي العظيم نال الثلاثة فلمنج، وتشين، وفلوري جائزة نوبل في الطب عام 1945.

وفي إحدى عطلات نهاية الأسبوع عام 1939 نسي الرسام البريطاني لورانس لاوري أن يذهب للحفل السنوي للموظفين الذي تقيمه الشركة التي كان يعمل بها، وفوجئ بشاب يطرق باب منزله حينما كان يعد قهوته، وقد كان يحمل دعوة للمشاركة في معرض بلندن، وقال له الشاب، الذي بعثته إدارة المعرض لمنزل لاوري، إنه لو لم يجده كان سيذهب بالدعوة لفنان آخر حسب التعليمات التي تلقاها، فأحد الفنانين اعتذر في آخر لحظة والإدارة بحاجة إلى تحديد اسم البديل عاجلاً، وقد فتحت له مشاركته في معرض لندن الدولي أبواب النجاح والشهرة. لقد اقتنى لوحاته عدد من المتاحف البريطانية، والمتاجر العريقة المتخصصة، وبات مصدرًا لاهتمام الصحافة الإنجليزية والأوروبية. وصار لاوري اسمًا ذائعًا، ليس في مانشستر وإنجلترا فحسب، بل في عدد من دول العالم بعد أن تعرف الآلاف على أعماله التي اتسمت بالبساطة والتميز. لاوري، الذي لا يتحدث كثيرًا، لكنه يرسم كثيرًا قال لصحيفة (الجارديان): «لا أدري كيف نسيت موعد الحفل في ذلك اليوم. وضعت الموعد في غرفة نومي وغرفة المعيشة وحتى دورة المياه، لكن الحمد لله أنني نسيت، وحصلت على هذه الدعوة المهمة في مشواري».

الحمد لله أننا ننسى، فبنسياننا نكسب كثيرًا.. نكسب الأفراح ونخسر الأحزان. في حياة كل منا الكثير من الآلام والفقد. هذه الآلام قد تغتالنا وتغتال آمالنا لولا لطف الله بنا، الذي منحنا القدرة على النسيان.

إن النسيان ينقذ حياتنا. تخيلوا لو أننا نحمل كل الآلام التي تعرضنا لها معنا في كل زمان ومكان؟ ستكون حياة ممضة وعسيرة بكل تأكيد.

أحيانًا نعاقب أنفسنا على النسيان، لكن لا ندري أن هذا النسيان هو الذي يحركنا ويقودنا. قد لا ندرك نعمة النسيان وفضلها علينا للوهلة الأولى، لكن مع القليل من التأمل سنعلم أنها ساعدتنا على التحرر من الكثير من الأحزان. إن مجرد التفكير بالأشخاص الذين فقدناهم قد يعطل حياتنا ويفقدنا شهيتنا ويطفئ جذوة حماسنا، بَيْد أن الله لطيف بعباده عندما منحنا هذا الامتياز الذي يفتح لنا أبوابًا ونوافذ جديدة. لولا النسيان لما استطاع البشر تجاوز كبواتهم السابقة، واللاعبون إخفاقاتهم الماضية.

عند حضوري لمراسم أي عزاء أتألم عندما أرى الوجوه المكلومة، التي تبدو وكأنها تستعد للاحتضار، لكن سرعان ما يرزقها الله السلوان والنسيان، الذي يعيدها إلى الإقبال على الحياة من جديد، رحمة وكرمًا منه جل وعلا.

شكرًا للنسيان الذي حول العفن إلى عقار، وأطفأ الكثير من الأحزان.

كيف نصبح «شطارًا»؟

لا يوجد نجاح دون أخطاء، لكن مشكلة مجتمعاتنا العربية أنها تنظر إلى الخطأ على أنه عار يجب أن يطمس ويخفى، في المقابل، لا تتردد المجتمعات الغربية في الاعتراف بالأخطاء التي وقعت فيها في سبيل تصحيحها.

عندما كنت أدرس اللغة في أميركا كان أحد زملائي الخليجيين لا يتحدث في الفصل أبدًا. تسأله المعلمة ويرد عليها بابتسامة. يهرب من أي حوار في الفصل بأي طريقة. تارة يذهب إلى دورة المياه، وتارة أخرى يتظاهر بانشغاله بقراءة كتاب. كنت أشك أنه ينسى لسانه خلف باب الفصل. لكن فوجئت خلال الفصل الدراسي بفيلم قصير عرضته المعلمة، ويسلط الضوء على أنشطة الفصل الماضي، يظهر فيه زميلنا وهو يتحدث بثقة مع زملائه الآسيويين. يتناقش معهم بحبور وسعادة كبيرين. التفتُّ بعد الفيلم مباشرة نحو زميلي الجديد وسألته بعفوية: «أين أخفيت كل هذا عني طوال الأيام الماضية؟». فأجابني وهو يبتسم: «لا أخفيك أنني لا أرتاح أن أتحدث بالإنجليزية وأنت في الفصل. أخشى أن أخطئ وتسخر مني».

إن هذا الموقف، الذي أستحضره كثيرًا، يجسد الخوف الذي يسكننا تجاه ارتكاب الأخطاء. ننسى دائمًا أن الأخطاء هي سبيلنا الوحيد للنجاح. للأسف لم نتعلم في مدارسنا أن هذه الأخطاء هي التي تمنحنا الأمل والسعادة. نتعلم فقط أن: «غلطة الشاطر بعشرة». لكن لم يرشدنا أحد إلى أننا لن نصبح (شطارًا) إلا إذا (غلطنا) عشر مرات. فتوماس أديسون، مخترع المصباح الكهربائي، لم يكف عن الاعتراف بأنه تعلم من 999 محاولة غير ناجحة في سبيل اختراع المصباح الكهربائي. هذه الأخطاء التي ارتكبها هي التي وهبتنا كل هذا الضوء. تخيلوا لو لم يخطئ أديسون هل سنجني هذا النور الذي ننعم به اليوم؟

لا يوجد نجاح دون أخطاء. لكن مشكلة مجتمعاتنا العربية أنها تنظر إلى الخطأ على أنه عار يجب أن يطمس ويخفى لا أن يُشهر ويُكشف. في المقابل، لا تتردد المجتمعات الغربية في الاعتراف بالأخطاء التي وقعت فيها في سبيل التصحيح وإلهام شعوبها ودفعها إلى المحاولة سعيًا لرقي مجتمعاتها وازدهارها. لذلك تجدهم لا يترددون في المحاولة وارتكاب الأخطاء المرة تلو الأخرى مما جعلهم يتزعمون العالم صناعيًا وعلميًا. يحولون الأخطاء إلى نجاح يستثمرونه في محاضراتهم وحواراتهم وحياتهم ومستقبلهم. لا أنسى المقابلة التي شاهدتها قبل سنوات للعالم الكيميائي الأميركي هاري كوفر، الذي تحدث فيها عن الأخطاء التي وقع فيها أثناء محاولته صناعة

بندقية من البلاستيك عام 1942. أشار في المقابلة إلى أنه لاحظ خلال عملية التصنيع غير الناجحة وجود مادة لزجة ولاصقة أفرزتها المادة الكيمائية التي كانوا يستخدمونها في عملية التصنيع. اعتقد كوفر أن هذه المادة ربما تكون منتجًا تجاريًا واعدًا. انهمك مع زملائه في تطويرها. وبالفعل نجحوا في ذلك وصنعوا (غراء) عرف باسم (سوبر جلو).

لقد جنى كوفر الملايين بفضل هذا الغراء، الذي خرج من رحم عملية صناعية فاشلة. وساعده أيضًا على الحصول على تمويل كبير أسهم في اختراعه نحو 320 منتجًا جديدًا.

إن الكثير من الأشياء الجميلة التي نتمتع بها في حياتنا اليوم ثمرة لأخطاء صغيرة كانت أو كبيرة. فأعواد الآيسكريم التي يقبل عليها أطفال العالم كانت نتيجة خطأ طفيف وقع فيه الطفل فرانك إبيرسون (11 عامًا). فلقد ذهب فرانك إلى فراشه عام 1905، في ليلة شتاء باردة في سان فرانسيسكو بأميركا، ناسيًا على شرفة المنزل كأسًا يحتوي على مسحوق للصودا مع ماء كان يحركهما بعود. استيقظ صباحًا وذهب إلى الشرفة وفوجئ بتجمد الصودا مع الماء. استخرج المادة المتجمدة من الكأس بواسطة العود وتذوقها فطاب له مذاقها. أخبر والده عما حدث فاجتاحته سعادة كبيرة تفاقمت بعد أن تذوقه. صنع فرانك في اليوم التالي عشرات منه بمساعدة والده وباعه على أبناء الحي. بعد سنوات انتشر هذا المنتج في أرجاء المدينة والولاية

وحصل فرانك على حقوقه التجارية والفكرية. ونـال أكثر من 10 ملايين دولار.

الجميل أن (أعـواد الآيسكريم) شجعت إبيرسون على افتتاح مصنع صغير لصناعة الأعواد الخشبية. أولوية العمل فيه للمطرودين من أعمالهم بسبب أخطاء عملية. حقق المصنع نجاحًا كبيرًا أثبت أن هؤلاء العمال استفادوا من تجاربهم السابقة وأن الحياة لا تنتهي بسبب خطأ بل ربما تبدأ معه.

لم يدّع فرانك وكوفر وكبيرهم أديسون أنهم لم يخطئوا، لكنهم يؤمنون أنهم تغلبوا على أخطائهم. لم يتنصلوا من أخطائهم، لكنهم انتصروا عليها.

إن الأخطاء ليست خطأ، الخطأ هو ألا نحاول؛ خشية الوقوع في الخطأ. إذا كان هناك من يستحق أن يكون خصمًا لنا فهو الخطأ ولا يوجد أجمل من الفوز عليه.

ورقة صغيرة!

تعثر المصرفي الهنغاري، نيومان ميكسا، وهو يسير نحو المطبخ بورقة صغيرة مليئة بالأرقام. سأل زوجته عن مصدرها فأجابته بأنها ربما سقطت من ابنهما جون (5 سنوات)، عندما جاء إليها؛ لتعد له وجبة العشاء، احتفظ نيومان بالورقة في حقيبته. قطف الورقة صباحًا وسأل ابنه عنها وهما يتناولان طعام الإفطار، أجابه جون بأنها فعلاً له.. كانت الورقة تزدحم بحلول لبعض المسائل الرياضية البسيطة.. استفسر الأب أكثر عن فحوى الورقة وخلفياتها وأجاب الابن عن الأسئلة بتلقائية وسعادة.. قبّله الأب ثم غادر إلى عمله، والابن إلى مدرسته، عاد الأب إلى منزله في المساء، وبرفقته مدرس خاص في الرياضيات؛ لتطوير مهارات جون. لم يمض عام واحد حتى صار جون حديث مدرسته في الرياضيات.. ولم يكمل الثامنة حتى أصبح بارعًا في حساب التفاضل والتكامل. حرص والده على تدريسه على يد عدد من أساتذة الرياضيات والفيزياء المميزين فانعكس على أدائه ونتائجه. تابع جون تفوقه ونبوغه حتى حصل على الدكتوراه من جامعة بودابست. وفي عام 1930 هاجر مع والدته وأشقائه إلى

أميركا، وهناك اختير جون فون نيومان مع أينشتاين للتدريس في معهد الدراسات المتقدمة لجامعة برنستون، التي حقق فيها إنجازات علمية خلدت ذكراه إلى اليوم.

وقد كرمته الجامعة بإقامة متحف يعرض أعماله ونظرياته الرياضية الرائدة ومساهماته في صناعة الكمبيوتر الحديث. ويتضمن بعض رسائله وكتاباته الخاصة، ومن بينها الورقة الصغيرة التي التقطها والده من المطبخ، وكانت بمثابة شرارة انطلاق موهبته ونظرياته.

إن من يتصفح سيرة هذا العالِم الفذ سيكتشف أحد أسباب تفوق الغرب وريادتهم. ثمة ورقة صغيرة تجعلهم علماء وقياديين، في حين أوراقنا الصغيرة تصنع منا طغاة وفاسدين. في الغرب أوراقهم تساعد الأب على قراءة مستقبل ابنه. في المقابل، أوراقنا الصغيرة التي يرزعها آباؤنا في أيدينا تساعدنا على الدخول على مسؤول كبير أو صغير، تهبنا منحة وجنحة. إنهم يتربون على القراءة والوضوح، بينما نتربى على المراوغة والرضوخ.

آلاف الأوراق التي يتركها أطفالنا خلفهم لا تجد من يشرحها ويحللها ويتفقدها، لا تجد من يقرؤها ويتمعن فيها. شاهدت الكثير من الآباء الذين لا يعبؤون بما يقوم به صغارهم. لا يردون عليهم حتى عندما يستعرضون أمامهم رسوماتهم أو كتاباتهم. قد يبتسمون ثم يعودون إلى جوالاتهم أو مسلسلاتهم.

إننا نعتبر ما يخطه أبناؤنا صغارًا مجرد (خرابيط)، لكن في الحقيقة هي خارطة طريق لمستقبلهم. بوسعنا أن نصنع مما خطوه مجدًا كبيرًا. الخطوط لا تقودنا إلى مدننا فحسب بل إلى أحلامنا أيضًا.

المصرفي نيومان حول الورقة الصغيرة التي سقطت من ابنه إلى خريطة أرشدته إلى مستقبل فلذة كبده.

ماتت الكثير من مواهبنا لأنها لم تجد من يكتشفها ويتنبه لها، لا يوجد شخص بلا موهبة. لكن يوجد الملايين ممن لم تُكتشف مواهبهم.

إن أطفالنا في أمس الحاجة إلى أوقاتنا أكثر من أموالنا. العناية بالأطفال لا تعني أبدًا الاهتمام بطعامهم وملابسهم بقدر الاهتمام بأفكارهم وأسئلتهم ومحاولاتهم.

التأسيس الصحيح هو الذي يقود إلى إبداع وثراء في المستقبل. هل كان سيحقق جون فون نيومان ما حققه من نظريات وإنجازات لو لم ينتبه والده للورقة التي سقطت من ابنه؟ أشك في ذلك. أشك كثيرًا.

تسقط من شفاه أطفالنا وأيديهم الكثير من الحروف، لكنها لا تجد من يصغي إليها ويتصفحها بعناية. إن الـ(حرف) يصبح (فرح) لو قرأناه بالعكس. قراءتنا الذكية للأشياء تمنحها قيمة مختلفة. علينا أن نمنح أطفالنا جل تركيزنا وانتباهنا لنساعدهم على التحليق في فضاء الإبداع.

أغلبنا يتحسر؛ لأنه لم يكتشف موهبته إلا متأخرًا بعد أن أهدر عقودًا في الطريق الخطأ.. في المكان الخطأ. بوسعنا أن نتدارك هذا الخطأ مع أطفالنا عندما ننصت إلى إيقاعهم، عزف أصابعهم. إن الحياة قصيرة، قد نكتشف الكثير عنها في ورقة صغيرة!

كيف نتذوق السعادة؟

تخصص صديقي العزيز في الرياضيات بعد أن فشل في الدخول إلى الكلية الأمنية التي كان يتطلع إلى الالتحاق بها. واجه صعوبات جسيمة في اجتياز المقررات الدراسية. ينجح في واحدة ويرسب في اثنتين. استمر على هذا المنوال نحو عامين دراسيين. لكن في أحد الأيام، وهو يهمُّ بالخروج، من إحدى محاضراته، استوقفه الضحك الذي يندلع من أحد الفصول المجاورة. سأل أحد الطلاب الذي خرج للتو من الفصل عن سر الضحك الذي لم يعتد سماعه في جامعته مبكرًا. أخبره أن أستاذهم البريطاني، الذي يدرسهم إحدى مواد اللغة الإنجليزية، كان يروي على مسامعهم بعض المواقف الطريفة. لم تشبعه الإجابة. اتصل على زميله الذي يتخصص في اللغة الإنجليزية وسأله عن الأستاذ البريطاني، الذي سمع عنه. أجابه بالتفصيل. قال له إن هذا الأستاذ أسهم في تطوير مهارة الكثير من الطلبة بسبب أسلوبه الشيق في التدريس. يطعم محاضراته بمواقف شخصية. ويشجع الطلاب على إفشاء تجاربهم ومحاولاتهم أمام أقرانهم. راق لصديقي ما سمع من زميله. ذهب في اليوم التالي إلى مكتب عميد الكلية لتغيير التخصص.

قال له مدير مكتب العميد إن معدله لا يسمح له بتغيير التخصص، كما أنه يحتاج إلى أن يحصل على درجة مرتفعة في اختبار تحديد مستوى اللغة الإنجليزية. طوى صديقي قيده في الجامعة بشق الأنفس. وانخرط في دورات مكثفة في تعلم اللغة الإنجليزية ثم عاد إلى الجامعة ممنيًا نفسه بالقبول في التخصص الجديد. وافق عميد الكلية على مضض على طلب صديقي، جازمًا أنه لن ينجح في اللغة الإنجليزية. كلمات العميد المثبطة زادت صديقي إصرارًا على متابعة حلمه.

زار صديقي الأستاذ البريطاني في مكتبه بعدما انتقل إلى تخصص اللغة الإنجليزية. أسرَّ له أنه اختار هذا التخصص بناء على ما سمعه عنه، وأفشى له الصعوبات التي تكبدها من أجل أن يكون طالبًا من طلابه. صافحه أستاذه الجديد بحرارة ووعده أن يمهد له الطريق بكل ما أوتي من خبرة ومهارة.

صديقي سيحتفل قريبًا بحصوله على الدكتوراه في تخصص اللغة الإنجليزية من إحدى أفضل الجامعات البريطانية في تخصصه. لا أعرف ماذا كان سيؤول إليه حاله لو لم يغير تخصصه ويستمع إلى نداء عقله؟ لا أعلم كيف سيكون حاله لو أطفأ حلمه بعد استماعه إلى عميد كليته؟ أدرك تمامًا أنه سيكون أحد المُحبَطين الذين يملؤون عالمنا اليوم.

إنني أشعر بالحزن على الكثير من الأصدقاء الذين يصرُّون على الاستمرار في المكان الخطأ. إنهم يحرقون أنفسهم.. يبددون

أحلامهم. يغتالون آمالهم. للأسف أمثلتنا العربية تكرس الانهزامية وتؤسس لغد خال من الأمل. وانتشار مثل: «عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة»، خير مثال على تواضع طموحاتنا. إن هذا المثل وغيره يدعو إلى الركون... إلى السكون.

لذلك تجد الكثير من أصدقائنا وأحبتنا يتشبثون بوظائفهم وتخصصاتهم التي لا تروق لهم في سبيل الاحتفاظ بوظيفة أو مكان مضمون. إن هذه الفلسفة هي أحد أسباب تخلف مجتمعاتنا التي تضج بالإحباط والخمول. كيف ننتظر نجاحًا علميًا أو صناعيًا ونحن نقوم بمهامنا بشكل ميكانيكي فقير من الحماسة والمتعة؟

إننا سنعيش حياة واحدة وليس من الحكمة أن نهدرها في مجال لا نحبه ولا نشتهيه.

علينا أن نجرب أشياء جديدة. أن نبحث عن خيارات بديلة. إنّ تمسكنا بنفس ما نقوم به هو سبب رئيسي للإحباط العارم الذي يقطننا. حياة الكثير منا تخلو من التجارب الجديدة والمغامرات المحسوبة. هذه التجارب هي التي تمدنا بالبهجة والنجاح. هناك أشياء جميلة حولنا، لكننا لا ندرك سحرها؛ لأننا ببساطة لم نتذوقها. من لا يتذوق الشيء لا يعرف طعمه.

إذا لم تحقق نجاحك في وظيفتك فغادرها ولا تأسف. ستنجح في مكان آخر. رونالد ريجان كان ممثلاً متواضعًا. اتجه للسياسة فأصبح أحد أهم رؤساء أميركا.

بائع عصير الليمون

كان الشابّ جون يبيع عصير الليمون البارد في الكابيتول هيل بواشنطن دي سي، في الصيف. يراقب باهتمام الحشود الذين يتقاطرون على المعالم السياحية في الحي الشهير. يحاول أن يخطف انتباههم بابتسامته وعبارة يرددها عشرات المرات:«عصير طازج. سيمنحك طاقة لمتابعة رحلتك». كان يصطاد بعض الزبائن بسنارة ابتسامته. ينال القليل من نقودهم والكثير من أحاديثهم. تتركز مجمل نقاشاتهم على رداءة الغرف في الفنادق المجاورة. ملاءات قذرة، وخدمة غرف تعيسة، وطعام بارد. ظل يستمع إلى هذه الانتقادات ويدخرها في صدره. يجمعها مع النقود، التي يجنيها من عصيره الطازج وابتسامته.

بعد سنوات قليلة افتتح مشاريع صغيرة جعلته يمتلك مالاً كافيًا؛ لتقديم طعام ساخن بنكهة شهية. نجاح مطعمه جعله يفتتح آخرَ. كان يتقاسم أرباح المطعم مع العاملين فيه. يؤمن جون أن سعادة موظفيه ستسعد زبائنه. حرص على إرضاء مرؤوسيه قدر المستطاع. أسلوبه الملهم جعل العمل معه حلمًا لكبار الطهاة في واشنطن ونيويورك ويوتاه. الكل يود أن يظفر بالوظيفة والشراكة المنتظرة. حققت

مطاعمه نجاحًا باهرًا بعد أن استقطب أفضل الطهاة والنادلين والمحاسبين في المطاعم الأمريكية.

كان يظن البعض أن جون يخسر لأنه يوزع أسهمه على موظفيه بإسراف لكنه كان يكسب. كسب اسمًا لامعًا وموظفين لافتين قادوه إلى نجاح هائل. هذا النجاح دفعه للإيمان بأنه حان موعد افتتاح أول فندق باسمه. فندق بملاءات عطرة نظيفة، وخدمة مميزة، وطعام ساخن. ثقته بفريقه جعلته يقدم على هذه الخطوة أو القفزة. قبل افتتاح الفندق كان يستحضر في منامه على شكل كوابيس عربته التي كان يجرها وفوقها عصير الليمون الطازج وبمحاذاتها انتقادات الزبائن للنزل المجاورة. كان يخشى أن تتوفر عربة لبيع العصائر أمام فندقه الصغير يجتمع حولها الغاضبون من مستوى فندقه. طرد جون هذه الكوابيس عبر افتتاح تجريبي لثلاث شهور دعا إليه أقاربه وأصحابه بمبالغ زهيدة. ترك في كل غرفة قلم ودفتر صغير كتب أمامهما: «اكتب رأيك بصراحة في مستوى الخدمة هنا. نعدك أن نلبي مطالبك عند زيارتك في المرة المقبلة». استفاد جون من الاقتراحات وافتتح رسميًا فندقه الصغير، الذي حقق إقبالاً كبيرًا منذ أيامه الأولى.

افتتح جون الفندق في الثلاثينيات ومازالت الورقة والقلم التي وضعهما في غرفه الأولى تنتشر في جميع الفنادق ما صغر منها وما كبر في شتى بقاع الأرض.

أمست فنادقه أحد أهم النزل على مستوى العالم. أصبح اسم

عائلته (ماريوت) الذي اختاره اسمًا لفنادقه ومنتجعاته واحدًا من أشهر العلامات التجارية في العالم.

ظل جون ويلارد ماريوت يعمل في فنادقه كأي موظف. ينتقل مع زوجته إلى فروعها المختلفة بهمة ونشاط كبيرين. كان يرتدي ملابس موظفي الاستقبال. يمنح الزبائن المفاتيح ويساعدهم في حمل الشنط إلى غرفهم. كان يضع اسم جون فقط على بطاقته حتى لا يتعرف أحد إلى هويته. رفض العديد من الحوارات الصحفية المبكرة لأنه لا يود أن يعرف هويته أحد ليمارس عمله بهدوء. طريقته في إدارة سلسلة فنادقه ومنتجعاته دفعت الكثير من موظفيه الكبار إلى اقتفاء أثره وتتبع خطاه.

في عام 1935 شعر بآلام شديدة وأظهر التشخيص على الفور إصابته بالسرطان في الغدد الليمفاوية، وتنبأ الأطباء بوفاته بعد شهور رغم العمليات العديدة التي أجراها. لكنه عاش 50 عامًا أخرى. قاوم آلامه بالعمل والسعادة، التي كان يراها وهو يشاهد عمله يتوسع ويكبر.

يؤمن ماريوت أن فلسفة النجاح تعتمد على إسعادك من حولك. سيسعدون أنفسهم وسيسعدون من حولهم. ويرى أن هناك الكثير من المشاريع العظيمة التي لم تنفذ بعد. لكنه لا يملك طاقة تجعله يستثمر في مشاريع أكثر.

نجح ماريوت؛ لأنه استمع إلى هموم الناس وحرص على تلبية مطالبهم. أصغى إليهم بعناية فائقة وهو يناولهم العصير البارد أثناء

حواراتهم الساخنة. هذه النقاشات الحارة والانتقادات اللاذعة التي كانوا يتداولونها فيما بينهم منحته الأفكار الأساسية لمشاريعه، التي خلدت اسمه واسم عائلته حتى اليوم.

أعتقد أننا لو استطعنا أن نصغي إلى هموم الناس وانتقاداتهم لخدمات ومرافق وسلوكيات متفرقة ومختلفة بوسعنا أن نحقق أمجادًا ونجاحات غير مسبوقة. هناك الكثير من المشاريع المربحة ماديًا ومعنويًا والتي لم تر النور حتى اللحظة. تحتاج فقط إلى من يلتقط الفكرة بعناية. ويربيها جيدًا حتى تكبر وتنضج وتدر له الخير والسعادة معًا.

نقرأ جميعًا يوميًا انتقادات واسعة لأشياء كثيرة حولنا. لكن هل فكر أحدنا على طريقة جون ماريوت؟ أقصد هل استمع إليها جيدًا وفكر في حلول لها دون أن يستهلك مشاعره وجهده في حوارات كلامية ستتبخر. الكثير من النجاحات بدأت بمشاكل وصعوبات وتحولت إلى انتصارات. انظروا إلى بائع عصير الليمون ماذا فعل بما سمع، لقد فاز وارتفع. بجوارنا ثروة هائلة من المشاريع الواعدة التي تحتاج فقط إلى من يتصدى لها بالأعمال وليس الأقوال.



عبدالله المغلوث

- كاتب أسبوعي في جريدة الوطن السعودية.
- يدرس الدكتوراه في الإعلام الإلكتروني في جامعة سالفورد ببريطانيا.
- حاصل على ماجستير في تقنية المعلومات والإدارة من جامعة كلورادو بأمريكا.
- حاصل على بكالوريوس في التسويق والإعلام من جامعة ويبر ستيت، بولاية يوتاه الأمريكية.
- عمل في عدة صحف ومجلات عربية وسعودية.
- رئيس العلاقات الإعلامية في أرامكو السعودية 2006م.
- رئيس اللجنة الإعلامية لقمة أوبك الثالثة في الرياض، 2007 م.

من مؤلفاته:

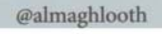
- أرامكويون، 2008.
- الصندوق الأسود... حكايات مثقفين سعوديين، 2010.
- مضاد حيوي لليأس...قصص نجاح سعودية، 2011.
- كخه يا بابا... في نقد الظواهر الاجتماعية، 2011.
- تغريد...في السعادة والتفاؤل والأمل، 2012.

e-mail: almaghlooth@gmail.com



www.almaghlooth.com





لا ندرك ضآلة مشاكلنا الحالية إلا بعد
ارتطامنا بمشاكل أكبر منها. وحينها
سنندم كثيرًا؛ لأننا حزنا كثيرًا على
أشياء صغيرة. صغيرة للغاية.


ISBN 978-9948-425-90-8

